أعلام مبرّزون

كريستوف كولومبوس



كريستوف كولومبوس

أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

كريستوف كولومبوس

١٤٥١ - ١٥٠٦م

دار الشرق العربي
بيروت . شارع سورية . بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ـ الإسكندر الأكبر
٢ـ هنيبعل
٣ـ أبو العلاء المعري
٤ـ ابن بطوطة
٥ـ ابن خلدون
٦ـ كريستوف كولومبوس
٧ـ وليم شكسبير
٨ـ نابوليون بونابرت
٩ـ ليون تولستوي
١٠ـ المهاتما غاندي

كتبها وأشرف على اصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

مقدمة

عُرِفَ الانسانُ منذُ فَجْرِ التاريخ بِمَيْلِهِ إلى اكْتِشافِ المَجْهُولِ وتَحَمُّلِ أعظمِ المَشَاقِّ في سبيلِ ارْتِيادِهِ، وكانَ البحثُ عنِ الرزقِ والمَراعي ومَناهِلِ المياهِ حافزَ الرُوَّادِ في اندفاعِهِم لاكتشافِ البِقاعِ الجديدةِ من الأرضِ التي لم يَطَأها قَدَمُ الإنسانِ قبلَهم، فإذا تمَّ لهم ما يُريدونَ فَازُوا بالثَّرَواتِ الكبيرةِ، وأحِيطُوا بهالات منَ المجدِ والشُّهْرَةِ، ونَظَرَ الناسُ إليهم بالإكْبارِ والإعْجابِ، **وفي القُرونِ الخمسةِ الأخيرةِ ازدادَ نشاطُ الرُوَّادِ**، واتَّسَعَ عنْ طريقِ اكتشافاتِهم العالَمُ القديمُ الذي كانَ مَعروفاً لِلفينيقيِّين واليُونانيينَ والرومانيينَ اتّساعاً عظيماً حتى شَمَلَ الكُرَةَ الأرضيةَ بأسْرِها، فرُسِمَتْ لها الخَرائطُ المُفَصَّلَةُ والمُصَوَّراتُ الدقيقةُ، ثم اتَّجه طُموحُ الرُوَّادِ إلى اكْتِشافِ الفضاء مع تَقَدُّمِ المُخْتَرَعاتِ والوسائلِ العلميةِ الحديثةِ، **وقد حَقَّقَ الإنسانُ انتصارات مُذْهِلَةً في رُبعِ القرنِ الأخيرِ**، بوُصولِه إلى القَمَرِ وإرسالِهِ مراكبَ الفضاء تكشِفُ الأسرارَ المجهولةَ لِلسَّماء وكواكِبِها، ولَنْ يَقِفَ طُموحُ الإنسانِ في اكتشافِ المَجْهُولِ عند حَدٍّ، والمستقبلُ سَيَشْهَدُ فُتوحات علميةً في هذا المِضْمار، لَمْ تكُنْ لِتَخْطُرَ على بالِ أَحَدٍ من الناسِ.

ومهما يكنْ خطرُ تلكَ الاكتشافاتِ عظيماً في تاريخِ البشريّةِ، فإنَّ **اكتشافَ أمريكا** في النصفِ الثاني من القرْنِ الخامسَ عشر الميلاديِّ **يَظَلُّ من أكبرِ الأحْداثِ الخطيرةِ** في عالَمِ الارْتِيادِ، لِمَا كانَ لهُ من الأثرِ العظيمِ في تاريخِ العُمرانِ البشريِّ، باكتشافِ قارَّةٍ جديدةٍ منْ أغْنى القارّاتِ الأرضيةِ، واستيطانِها وإقامةِ دولةٍ من أعْظَمِ الدُّوَلِ ثرْوَةً وأشدِّها مَنَعَةً فوقَ أرضِها، مِنْ بَيْنِ تلكَ الدولِ الأخرى التيَ اتّسَعَتْ لها أرضُ تلكَ القارَّةِ الغَنِيَّةِ الجديدةِ.

ولهذا كلِّه يكونُ حديثُنا عن مُكْتَشِفِ أمريكا الرّائدِ العظيمِ **كريستوفَ كُولُومْبُوسَ** مُمْتعاً ومُفيداً: ففي عَرْضِ سِيرةِ حياتِه الحافلةِ بآياتِ النُّبُوغِ والمجدِ والطُّموحِ دَرْسٌ وعِبْرَةٌ لِلْقارىءِ العَزيزِ: فَقَدْ تَحَمَّلَ كولومبوسُ أعظَمَ المشاقِّ، وتَعرَّضَ لِلْمَهالِكِ، واستهانَ بالأخْطارِ، **حتى تمكَّنَ من تحقيقِ حُلُمِه في اكتشافِ الأرضِ الجديدةِ**، ثم عانى بعدَ ذلك من حَسَدِ الحاسدينَ وكَيْدِ الكائدينَ ما يَجْعَلُ حِكايةَ حياتِه مأساةً، وإنْ غَدا في التاريخِ واحداً من الأعلامِ المُبَرِّزينَ الخالدينَ.

الباب الأول

نَشْأَةُ كولومبوسَ وتكوينُه

١٤٥١-١٤٧٦ م

— ١ —

في مدينةِ **جَنَوى**، الميناء الإيطاليّ المشهورِ، وُلِدَ كِريستُوفُ كولومْبُوسُ عامَ ١٤٥١، من أسرةٍ فقيرةٍ، فقد كانَ أبوه دومينيكُ حائكاً يعملُ في تَمْشِيطِ الصُّوفِ، وقد وَرِثَ عن آبائه هذه المهنةَ، كما كانتْ أمُّه من أسرةٍ تسكُنُ في ضواحي جَنَوى، وتمتَهِنُ حِياكَةَ الصُّوفِ أيضاً.

نشأَ الصبيُّ في هذا المُحيطِ العُمَّاليِّ الفقيرِ، فَعَلَّمَهُ أبوه صناعتَهُ، وعندما كَبرتِ الأُسرةُ، وأصبحَ لِدومينيكَ ثلاثةُ صبيانٍ وبنتٌ واحدةٌ، وَوَجَدَ أن مِهْنَةَ الحِياكةِ لا تَستطيعُ إعالَةَ الأُسرةِ، عَمَدَ الرجلُ إلى مُمارَسَةِ التجارةِ، إلى جانبِ مِهْنَتهِ، لِيَكْسَبَ ما

يكفيهِ للإنْفاقِ على أولادِهِ، وأدخلَ ابنَه كُريستوفَ المدرسةَ ـ **مدرسةَ بافيا الجامعةَ** ـ فتعلَّمَ فيها مُدَّة فنَّ الخطّ ومبادِىء الهندسةِ وعِلْمَ الجُغرافيةِ وعلمَ الفَلَكِ، **وظهرَتْ براعتُه الكبيرةُ في رَسْمِ الخرائطِ**، وتَرَكَ المدرسةَ في الرابعةَ عشرةَ من عُمرِهِ، لسببِ لا نَعْلَمُهُ، والتحقَ بإحدى السُّفُنِ **مَلاَّحاً وجُنْدِياً**، على عادةِ الملاّحينَ في عَصْرِهِ، ويبدو أَنَّ لِمَدينةِ جَنَوى ـ مَسْقَطِ رَأسِهِ ـ بمينائِها الكبيرِ على البحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ، والعامرِ دَوْماً بالسُّفُنِ الذاهبةِ والآيِبَةِ، أثراً في **تَعلُّقِ الفتى بالبحرِ والمِلاحةِ البَحْرِيّةِ**، ومدينةُ جَنَوَى كانتْ قبلَ ولادةِ كُولومبوسَ بأَكْثرَ من ثلاثةِ قُرون قد تمَكَّنَتْ من تكْوينِ قُوَّةٍ بحريةٍ عظيمةٍ أعانَتْها في القرنَيْنِ الثالثَ عشرَ والرابعَ عشرَ الميلادِيَّيْنِ على إنْشاء امبراطوريةٍ

جَنَوى الاستعماريةِ وازدهارِ حَرَكَتِها التجاريةِ معَ أقطارِ الدُّنْيا، واستطاعتْ جَنَوى بذلكَ أن تُزَوِّدَ العالَمَ بأَمْهَرِ المَلاّحينَ الذين كانُوا يَجُوبُونَ البحارَ على مَتْنِ سُفُنِهم، ويحملُون البضائعَ التجاريةَ إلى كُلِّ ميناء من مَوانِىء الدُّنيا، ويُقايِضُون علَيْها، ويَعودُون بالأَرْباحِ الوفيرةِ إلى بَلَدِهم، **ولهذا كانَ مَلاَّحو جَنَوَى منْ أَمْهرِ الناس في فَنِّ المِلاحةِ البحريةِ،** وهمُ الذين عَلَّمُوا هذا الفنَّ الأُمَمَ الأُخرى كالإسبانيّينَ والبُرْتُغاليينَ والفِرَنْسيينَ والعُثمانيينَ، وبذلكَ أَوْجَدُوا لهم مُنافسينَ في البحارِ بعدَ أن سَيْطَروا علَيْها وَحْدَهُم أَمَداً طويلاً.

وعند ولادةِ كولومبوسَ كانَ مَجْدُ مدينتِهِ العظيمةِ آخذاً في الأُفُولِ، فَبَعْدَ بُلوغِ جَنَوَى أَوْجَ نُفوذِها بدأتْ تَتَراجَعُ وتَنْهَارُ، لِعِدَّةِ أَسْباب، أهمُها:

المُنَازَعاتُ الداخليةُ بينَ فئاتِ سُكّانِها، واقتتالُهم صِراعاً على الحُكْمِ، وازديادُ قُوّةِ العُثمانِيّين الناميةِ وسيطرتُهم على البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، بالاضافةِ إلى هَجَماتِ جُيوشِ البُنْدُقِيَّةِ على جَنَوَى ومنافَسَتِها الدائمةِ لها.

وكان على مدينةِ **جَنَوَى** أن تَتَخَلّى عن أهدافِها الاستعماريةِ وتَقْتَصِرَ في مِلاحتِها على التجارةِ، وما أسرعَ ما غَدا أهلُ جَنَوى من أَبْرَعِ الناسِ في التجارةِ وتَحقيقِ الأَرْباحِ الوفيرةِ عن طريقِها، وكانَ **ميناء البلدةِ يَشْهَدُ قوافلَ المُهاجرينَ من الجَنَوِيِّين إلى** أَصْقاعِ الدنيا، وهَمُّ كلِّ واحدٍ منهم أن يَنْجَحَ في مَهْجَرِهِ في تعاطي التِّجارةِ وتكوينِ المَصارِفِ وجَنْيِ المالِ.

في هذا المُحيطِ قَضى كولومبوسُ طُفولَتَهُ،

وكثيراً ما نَجِدُ مُؤرِّخي حياتِه يَتَحَدَّثُونَ عنْ تلكَ الساعاتِ الحالمةِ التي كان الصبيُّ يَقْضِيها في ميناء جَنَوَى، وهو يُراقِبُ السُّفُنَ، ويَشْهَدُ غُدُوَّها ورَوَاحها، أو يَتَحدَّثُ إلى بَحَّارَتِها ومَلاّحيها، ويستمعُ إلى الأخبارِ العجيبةِ التي يَنقلونها بعدَ أسفارِهم الطويلةِ، عنِ البلادِ التي زَارُوها، والموانئِ البعيدةِ التي أرْسَوْا مَراكِبَهم فيها، وقد **ازدادَ تَعَلُّقُ الصبيِّ بالبحرِ والسُّفُنِ ورُكوبِها** والإبحارِ فيها إلى تلكَ الآفاقِ البعيدةِ التي يَحْلُمُ بالوُصولِ إليها.

والحقُّ أنَّ ما نعرفُه عن طُفولةِ الصبيِّ وتكوينِه الدراسيِّ شيءٌ يَسيرٌ جِدّاً، قبلَ أنْ يَهْجُرَ الصبيُّ مدرستَه وهو في الرابعةَ عشرةَ من عُمرِه، لِيَغْدُوَ بَحّاراً على ظَهْرِ إحدى السُّفُنِ، **ويَقُومَ بِبَعْضِ الرِّحْلاتِ التي بَلَغَ بها شاطِئَ أفريقيةَ الغربيَّ**، حيثُ كادَ

القَراصِنَةُ أنْ يأسِرُوهُ؛ وفي رِحْلةٍ أخرى **وصَلَ إلى شَواطىء اسبانيةَ وفِرَنْسَةَ، وزارَ انكلترةَ،** ويُرجَّحُ أنَّه أَبْحَرَ شمالاً حتى وصلَ إلى **أيْسلَنْدَةَ.**

— ٢ —

هذا المَلاَّحُ الفتى اليافعُ، استهوتْه المِلاحةُ البحريةُ، فهَجَرَ المدرسةَ لِيَلْتَحِقَ بها، ويقولُ مؤرِّخُو حياتِه إنَّ **أولَ رِحْلَةٍ بحريةٍ قام بها كُولومبوسُ كانت رِحْلَةً تجاريةً،** فعندما تركَ أبوهُ **(جَنَوَى)** لِلإِقامةِ في مَدينةِ **(سَافُونَ)** وتعاطي تِجارةِ (الجُبْن) فيها أوفدَ ابنَه كريستوفَ في رحلةٍ بحريةٍ لِيَشْتَرِيَ له البَضائعَ التي يُريدُها؛ ثم **تَوالَتْ رِحلاتُ الفتى على ظَهْرِ السُّفُنِ،** حتى إذا اشْتَدَّ سَاعِدُه — فيما قيلَ — جُعِلَ **رئيساً على سفينةٍ** وأرْسِلَ إلى تُونُسَ، لِيُوقِعَ بسفينةٍ من سُفُنِها، وفي عام ١٤٧٠ م كُسِرَتْ سفينتُه عند رَأسِ (سانت فَنْسَانْت) في الطَّرَفِ

الجنوبيِّ الغربيِّ من بِلادِ البُرْتُغالِ، وكادَ يَلْقى حَتْفَهُ غَرَقاً، لولا تَعَلُّقُهُ بِلَوْحٍ خشبيٍّ بَلَغَ بهِ السَّاحِلَ، فارْتَمى على البَرِّ وهوَ في النَّفَسِ الأخيرِ.

كانتْ **هذه الرِّحْلاتُ هيَ المدرسةَ البحريةَ العمليةَ** التي تعلَّمَ فيها كُولومبوسُ أسرارَ فَنِّ المِلاحةِ وقيادةِ السُّفُنِ، وكانَ الفتى في حَماسَتِهِ وَتعَلُّقِه بالبحرِ مُؤمناً بأنَّ القَدَرَ يُعِدُّه للمِلاحةِ البحريةِ ويُؤَهِّلُهُ لاكتشافِ الآفاقِ المجهولةِ منَ البحارِ البعيدةِ، فيزدادُ بذلكَ مَيْلُ الفتى إلى المُغامرةِ ورُكوبِ المَخاطِرِ، ويزدادُ **شَغَفُهُ بِمُطالعةِ الكُتُبِ التي تَصِفُ الأَصْقاعَ البعيدةَ كالصِّينِ والهِنْدِ،** وَينْكَبُّ على دراسةِ المُصَوَّراتِ والخَرائطِ التي رَسَمَها القُدامى لِتِلْكَ الأجزاء من المَعْمُورَةِ، ولا يَتَرَدَّدُ في الحُصولِ على مَعْلُوماتٍ إضافيةٍ عَنْها من

البَحّارَةِ والمَلاّحينَ الشُّيوخِ لِيَسْتَفيدَ من تجارِبهِم، ويُضيفَ المعلوماتِ التي يَجْمَعُها منهم إلى تلكَ التي يَجِدُها في الكُتُبِ والخرائطِ.

وهكذا استَقَرَّ في نَفْسِ الفتى ـــ وهو في فَوْرَةِ حماسَةِ الشباب وطُموحِهِ المُتوثِّب إلى تَحْقيقِ أحْلامِهِ ـــ إيمانٌ لا يَتَزَعْزَعُ بأنَّ الله أعدَّهُ لِلْقيامِ بِمُهِمَّةٍ مُقَدَّسَةٍ حينَ غَرَسَ في قَلْبه المَيْلَ إلى **اكتشافِ المَناطِقِ المَجْهولَةِ من الأَرْضِ، لِيَهْدِيَ سُكّانَها إلى عِبادَتِهِ!** وسيكونُ لهذا الإيمانِ أثَرُهُ في تَحَمُّلِ كولومبوسَ الأهوالَ وصَبْرِهِ العظيمِ على المِحَنِ والآلامِ، وهو يَسيرُ في الطريقِ الشّاقَّةِ الطويلةِ نحوَ هَدَفِهِ الأعظمِ، ولولا هذا الايمانُ العميقُ بِنَفْسِه لَكانَ اليأسُ في بعضِ المراحلِ قد بلغَ به مُنْتَهاهُ، وحالَ بينَه وبينَ الوُصولِ إلى حُلمِهِ الأكبرِ.

الباب الثاني

كولومبوسُ في البُرتُغالِ

١٤٧٦-١٤٨٥ م

ــ ١ ــ

حَطَّ كُولومبوسُ رِحالَهُ في **(لَشْبُونَةَ)** عاصمةِ البُرتغالِ، ويبدو أنَّ كثيراً من المَلاَّحين الذين يَتَحرَّقُونَ شوقاً لِلتَّوَغُّلِ في أَعْماقِ المُحيطاتِ، رغبةً في اكتشافِ جُزُرٍ جديدة، كانوا يَحُومونَ حَوْلَ **بَلاطِ المَلِك يُوحَنّا الثاني** في لَشْبُونَةَ لِيَفُوزوا بِمُوافَقَتِهِ وتَمْويلِهِ لهم وَحِمايتِه إيّاهُم، لِيُبْحِروا في رِحْلاتِهم الاكتشافيَّةِ، ويَجْعَلُوا منَ الأراضي الجديدةِ التي يَرْتادونها مُسْتَعْمَراتٍ بُرتغاليةً، **وكانَ البرتغاليُّونَ يُشَجِّعونَ أولئكَ المَلاَّحينَ الرُّوَّادَ**، ولهذا عَزَمَ كُولومبوسُ على الإقامةِ في لَشْبُونَةَ، وكانتِ المدينةُ المُطِلَّةُ على المُحيطِ تُعْجِبُهُ، وتُتيحُ له أن يُرسلَ منها نظراتِه الحالمةَ إلى الآفاقِ البَعيدةِ من المُحيطِ،

والأسْرارِ المجهولةِ التي يَتمنّى أنْ يَتِمَّ اكتشافُها على يَدَيْه، وراء تلكَ الآفاقِ النائيةِ.

كانَ كُولومبوسُ يَسْكُنُ بيتاً في حَيِّ الجَنَويِّين في لَشْبُونَةَ عامَ ١٤٧٦ م وقد أتَمَّ **الخامسةَ والعشرينَ من عُمرِه**، وكانَ لا ينقطعُ عن الاستماعِ إلى البَحّارَةِ والمَلاّحينَ في مِيناء لَشْبُونَةَ، ويُوالي دِراسَةَ **عِلْمِ الجُغرافيةِ وعِلْمِ تكوينِ الأرْضِ، وعِلْمِ الفَلَكِ**، وَمَرَّتْ سنوات أربعٌ على كُولومبوسَ في لَشْبُونَةَ، وهو يُوالي تلكَ الدراساتِ، ويُعِدُّ نَفْسَه لِرِحْلةٍ بعيدةٍ، وكان يَكْسَبُ حياتَه خِلالَ تلك الفَتْرَةِ من رَسْمِ الخرائطِ البحريةِ والبَرِّيةِ وبَيْعِها، وقَدْ **أتقَنَ كولومبوسُ رَسْمَ الخرائطِ إتْقاناً مَشْهوداً**، وكانَ ماهِراً في رَسْمِها مُنذُ يَفَاعَتِهِ؛ وفي نِهايةِ هذه الفَتْرَةِ التقى الشابُّ بِفَتاةِ أَحْلامِه،

الآنسةِ **فيليبيا مُونيز بريستريلُّو**، وهي ابنةُ رجلٍ ايطاليِّ الأَصْلِ، كانَ من رَبَابِنَةِ البَحْرِ المَشْهورينَ، ثم غَدا حاكِماً على جزيرةِ **(بُورْتو دو سَانْتُو)** مِنْ قِبَلِ مَلِكِ البُرتُغالِ، وهي **جزيرة صغيرة قُرْبَ جَزائِرِ مَادِيرا** الواقعةِ في غَربيِّ المَغْرِبِ الأَقْصى، وكانتْ أمُّ فيليبيا السيدةُ ايزَابيل مُونيز إحدى قَريباتِ الأُسرةِ المالكةِ في البُرتغالِ، وانتهى الحُبُّ الذي جمَعَ بين كريستوفَ وفيليبيا بِعَقْد قِرانِهما، **وأصبحَ كُولومبوسُ زَوْجاً لِتلكَ الفتاةِ** ذاتِ النَّسَبِ العَريقِ، وَصَحِبَها لِلإقامةِ في تلك الجزيرةِ الصغيرةِ، وهناكَ أعطاهُ حَمُوهُ كُلَّ ما كان لَدَيْهِ من خَرائطَ وآلات بحريةٍ، وعَلَّمَهُ كُلَّ ما كان يَعْرِفُهُ من تجارِبِ حياتِهِ الطويلةِ عن الرياحِ والتيّاراتِ البحريةِ غربَ جُزُرِ ماديرا، وهكذا أفادَ كولُومبوسُ من والدِ

زوجتِه إفادة عُظمى، وتابعَ الاستماعَ إلى البَحّارةِ الوَافدينَ على الجزيرةِ الصغيرةِ، وكانَ يُباحِثُهم ويُصغي إلى أحاديثِهم عَنْ أسْفارِهم والمشاقِّ التي لَقُوها في رِحْلاتِهم إلى أعْماقِ المُحيطِ. وانتهى مِنْ كُلِّ ما قَرَأَ وَسَمِعَ إلى الاعتقادِ بأنَّ **جانباً كبيراً من الأَرْضِ ما يَزَالُ مَجْهُولاً لدَى الأَوْربيينَ**. ولمّا كانَ كولُومبوسْ يُقدِّرُ أنَّ الأرضَ كُرَوِيَّةٌ فقدْ ظنَّ أنَّ في الإمكانِ الوُصولَ إلى طَرَفِ آسيةَ الشرقيِّ بالإبْحارِ غَرْباً. وكانَ عَدَدٌ من الناسِ قبلَ كُولومبوسَ قد ارتأَوْا مثلَ هذا الرأي. وكانَ أحدُ البحّارةِ البُرتغاليينَ قد أبعدَ يَوْماً بِسَفينَتِهِ مَدْفوعاً بتَيّارٍ عَنيف مِقْدارَ أَلْف ومائتيْ مِيلٍ غَرْبيَّ رأسِ (**سَانْتْ فَانْسَانْت**) فَوَجَدَ قِطعةً من الخَشَب طافيةً على ظَهْرِ الماء، وفيها آثارٌ تَدُلُّ على أنَّ يدَ الانسانِ

قد عَمِلَتْ بها. كما كانتْ أنابيبُ كبيرة من القَصَبِ تُلْقِي بها الرياحُ الغربيَّةُ عندَ **سَواحلِ جُزُرِ ماديرا وبُورتو دو سَانْتو**، وكانَ الأُنبوبُ الواحِدُ منها يَسَعُ قُرابةَ خمسِ ليترات منَ الماء، وهيَ من القَصَبِ الذي لا يَنْبُتُ إلاَ في بلادِ الهِنْدِ، وقد رأى كُولومبوسُ تلك القَصَباتِ وقطعةَ الخشبِ المَحْفُورِ فازدادَتْ قناعتُهُ بأنَّ تلكَ الأشياء قد أَتَتْ من أرض مَجْهولةٍ عَبْرَ البَحرِ، وامتلأَ يقيناً بأنَّهُ إذا واصلَ الإبحارَ غَرْباً فَسَيَبْلُغُ **بلادَ الهندِ**، وأنَّهُ في طريقِهِ إلى تلكَ البلادِ سَيكتَشِفُ كثيراً من جُزُرِ الهندِ المَجْهولةِ!

أفادَ كولومبوسُ من سُكناهُ في جزيرةِ **بُورتو دو سانْتو** أطيبَ الفائدةِ، في إنْضَاجِ مَشْرُوعِهِ لارتيادِ تلكَ الجُزُرِ المجهولةِ واكْتِشافِها، **وقَدَّمَتْ له حَمَاتُه**

أمُّ زَوْجتِه فيليبيا جميعَ الأوراقِ والمُصَوَّراتِ التي تَرَكها زَوْجُها بعدَ وَفاتِه، فانكبَّ كُولومبوسُ على دِراستِها والاستفادةِ منها، حتّى اكتملَتْ لَدَيْهِ صورةُ مشروعِهِ العظيمِ الذي أصبحَ يَمْلكُ عليهِ لُبَّهُ، ويَدْفَعُه إلى التفكيرِ في السُّبُل العَمَلِيَّةِ لِتَنْفيذِهِ.

وفي عامِ ١٤٨١ م رُزقَ كولومبوسُ ابنَه **(دِيغُو)** بعدَ عامٍ واحدٍ من زَوَاجِه من فِيليبيا، وكانتْ حياتُه الزوجيةُ سعيدة في أسْرَتِهِ الصغيرةِ، ولكنَّ القَدَرَ لم يَشَأ لهُ الاستمرارَ فيها ففي عامِ ١٤٨٣ م **تُوُفيتْ زوجتُه الحبيبةُ**، وكانَ ولدُه في الثانيةِ من عُمرِه، فَحزِنَ الزوجُ لِوَفاتِها أَشَدَّ الحُزْنِ، وَيتَساءلُ بعضُ مُؤَرِّخي حياتِه: هلْ كانتْ وفاةُ زَوْجتِه سَبَباً من أَسْبابِ انْطِلاقِهِ لِلقيامِ بِمُغامَرَتِه الكبيرةِ ورِحْلَتِه الاكتشافيَّةِ الخَطيرةِ؟

ـ ٢ ـ

فَكَّرَ كُولومبوسُ فيمن يَسْتَطيعُ أَنْ يُمِدَّهُ بالمالِ والرِّجالِ للإنطلاقِ في تَنْفيذِ مَشْرُوعِهِ، واتَّجَهَ في بدايةِ الأمرِ إلى مجلسِ **جَنَوَى** مَسْقَطِ رأسِه مُطالِباً إيّاهُ بِتَمْويلِ المَشْرُوعِ، فَلَمْ يَحْفِلْ أبناء وطنِه بمَشْروعِه ورَفَضُوا طَلَبَه، فاتَّجهَ الرجلُ بِأَنْظاره إلى **يُوحَنّا الثاني** مَلِكِ البُرتُغالِ، **وغادَرَ جزيرةَ بُورتُو دو سانْتو إلى لَشْبُونَةَ** عاصمةِ البُرتغالِ لِيكونَ قَريباً من بَلاطِ المَلِكِ الذي يَأمُلُ أَنْ يلقىٰ عَوْنَهُ وتَمْويلَه لِلقيامِ برِحْلَتِه الاكتشافيةِ، **وكانَ الملكُ يُوحَنّا الثاني مُتَلَهِّفاً لِلْبَحْثِ عن البُلدانِ الجديدةِ،** وحينَ تَلَقّىٰ طَلَبَ كولُومبوسَ أشارَ عليه أحدُ الأساقفةِ بأنْ

يُرْسِلَ سفينةً تُبْحِرُ بعيداً غَرْبيَّ المُحيطِ، خِفْيةً عن كُولُومْبُوسَ، فَفَعَلَ وأرسلَ سَفينةً ظلَّتْ تُبْحِرُ غَرْباً حتى يَئِس بَحّارَتُها مِنْ طُولِ الشُّقَّةِ فَعَادُوا أَدْرَاجَهم إلى لَشْبُونَةَ، وعَرفَ كولومبوسُ ذلكَ فازدادَ أَلَماً وغَيْظاً، وأَدْرَكَ أن **ملكَ البُرتغالِ قد خَدَعَهُ** وغَدَر بهِ وَخَيَّبَ الآمالَ الكبيرةَ التي عقَدَها على مُساعدتِه ودَعْمِهِ، والحقُّ أنَّ موقفَ المَلِكِ من مَشْروعِ كُولومبوسَ لم يكُنْ مُشَجِّعاً، لأسباب كثيرةٍ: إمّا لأنّه لم يَجِدْ في مَشروعِه غيرَ مُغامرةٍ خياليةٍ لا فائدةَ من القِيامِ بها، وإمّا **لأنَّ صاحبَ المَشْروعِ لم يكن بُرْتُغالياً**، فلَمْ يَشَأ أن يَدْعَمَهُ ويَمْنَحَه امتيازات يُؤْثِرُ بها مُواطِنيهِ، ولهذا أرسلَ تلكَ السفينةَ من وراء ظَهْرِ كُولومبوسَ، لِيُنَفِّذَ المشروعَ من دُونِهِ؛ وإمّا لأنَّ الملكَ البُرتغاليَّ كانَ يُفضِّلُ أن يَتَّجِهَ المَلاّحونَ

الرّوّادُ إلى أنْ يَدوروا حولَ افريقية لِيكْتَشِفوا طريقاً جَديدة إلى الهِنْدِ. ومَهْما يكُنْ فَقَدْ **باءتْ جُهودُ كولومبوسَ في لَشْبُونَة بالإخفاقِ**، بعدَ أنْ قضى عامَيْن في العاصمةِ البُرتغاليةِ، في انتظارِ مُوافقةِ المَلِكِ على دَعْمِ مَشْروعِه. وكانَ خِلالَ ذلكَ قد **استقْدَمَ إليها أخَاهُ «بارْتِلْميه»** وهو أصغرُ منه بِعَشْرِ سَنَوات. **فَعكَفا معاً على دِراسَةِ المَشْروعِ** من جَميعِ جَوانِبِهِ بِصَبْرٍ وأَناةٍ. وهما يَحْلُمانِ باكتشافِ تلكَ **الجُزُرِ المَجْهولةِ، بما فيها من أَشْجارٍ عاطِرَةٍ، وتَوابِلَ وافرةٍ، وذَهَب كثيرٍ**، فلمّا أيْقَنا مِنْ رَفْضِ الملكِ البُرتغاليّ لِلْمَشْرُوعِ أَسْرَعَ كولومبوسُ بالكتابةِ إلى ملكِ الانكليزِ **هنري السابع** يَعْرِضُ عليهِ مَشْروعَه ويَطْلُبُ منه دَعْمَه وتَمويلَهُ، مع الوَعْدِ بأنْ يكتَشِفَ الأرضَ الجديدةَ باسمِهِ، وكانَ على

(بارْتِلْميه) أَنْ يحملَ كِتابَ أخيهِ كُولومبوسَ إلى انكلترةَ لِيُحاولَ إقناعَ مَلِكِها بِدَعْمِ المَشْروعِ وتَمْويلِه وتَزْويدِ الأَخَوَيْنِ بالسُّفُنِ والبَحّارةِ الأَقْوِياء للانْطلاقِ في تَنْفيذِهِ، أما **كُولومبوسُ فكانَ عليه أنْ يُغادِرَ البُرتغالَ إلى اسبانيةَ** لَعَلَّهُ يَجِدُ فيها مَنْ يَقْتَنِعُ بِأَهمِّيةِ مَشروعِه وجَدْواهُ ويكونُ قادِراً على دَعْمِهِ وتَمْويلِهِ ومُساعدةِ ذلكَ البَحّارِ الجَنَوِيِّ في تَحْقيقِ حُلمِهِ الكبيرِ.

وهكذا غادَرَ كُولومبوسُ عاصمةَ البُرتغالِ يائساً حَزيناً، ومعَهُ طِفْلُهُ الصغيرُ **(ديغو)** وقد أصبَحَ في الخامسةِ من عُمرِهِ، قاصِداً اسبانيةَ، لِيُجرِّبَ حظَّهُ ويُواليَ سعيَه وراءَ هَدَفِه، وكانَ ذلك حَواليْ عام ١٤٨٥ م.

الباب الثالث

كولومبوسُ في اسبانية

١٤٨٥-١٤٩٢ م

— ١ —

كانتْ اسبانيةُ في الرُّبعِ الأخيرِ من القَرْنِ الخامسَ عشرَ الميلاديِّ تَسيرُ قُدُماً نحوَ استعادَةِ وَحْدَتِها **وتكْوينِ مَمْلكة قَوِيَّة**، وقد تَمَّ لها ذلكَ **باتِّحادِ مَمْلَكَتَيْ قَشْتَالةً وآراغُونَ بِزَواجِ ايزابيلاّ ملِكةِ قَشْتَالةَ وَفِرْدينَانْدَ ملكِ آراغونَ**، وقامتْ مملكةُ اسبانية باتّحادِ عَرْشَيْهِما، وراحتْ تُوالي حَربَها لِلْعَرَبِ، لإخراجِهم من بلادِها، وفي عامِ ١٤٧٩ ازدادَ عرشُ اسبانيةَ المُوَحَّدُ قُوَّة بانتصارِه على **البُرتُغالِ**، العدوِّ التقليديِّ لإسبانيةَ، وقد **كانتِ الدولتانِ تَتَنافَسانِ على الطُرُقِ البحريةِ والتجارةِ الدَّوْليةِ واكتِشافِ الأراضي الجديدةِ لِضَمِّها**

إليها. كذلكَ كانتِ الحالُ في اسبانيةَ عندَ وُصولِ كُولُومبُوسَ إلى مِيناء (**بَالُوسَ**) الواقعِ على ساحل المحيطِ جنوبيّ الأَنْدَلُسِ، **ومعَهُ طِفْلُهُ الصغيرُ (ديغو)**، ولم يَلْبَثِ الرجلُ أنْ قادَ ابنَه إلى دَيْرٍ للرُّهْبانِ يقعُ على بُعدِ كيلو مترَيْن من مِيناء بالُوسَ، فاستقبلَهُ رئيسُ الرُّهبانِ بالتَّرْحِيبِ، وقد أصغَى الراهبُ إلى حديثِ كُولومبوسَ بِعِنايَةٍ وهو يَرْوي لَهُ حِكايةَ مشْروعِهِ الكبيرِ وآمالِه التي يَرْجُو تحقيقَها بدعْمٍ من بلاطِ قُرْطُبَةَ. فَشَجَّعَهُ الراهبُ، وأبْدَى له اقتناعَهُ بِنَجاحِ مشروعِه، وَوَعَدَهُ بأنْ يُقَدِّمَ إليهِ كُلَّ مُساعدةٍ يَقْدِرُ عليها. فامتلأَتْ نفسُ كُولُومبوسَ غِبْطَةً ورِضى. وهو يستمِعُ إلى كَلِماتِ هذا **الراهبِ الكبيرِ، في دَيْر (لارَابيدا) واسمُه (جُوان بيرِيْز)**، وكانَ لِحُسْن حَظِّ كولومبوسَ

قسيساً خاصّاً لِمَلِكةِ اسبانيةَ ايزابيلاّ، وسَيكُونُ لهُ دَوْرٌ في إنْجاحِ مُهِمَّةِ كُولُومبوسَ في البَلاطِ الإسبانيِّ بعدَ بِضْعِ سَنَوات كما سَنَرى، وسَيَذْكُرُ المُكْتَشِفُ العظيمُ دائماً أنَّ ذلكَ **الراهبَ الكبيرَ كانَ الرجُلَ الوحيدَ الذي سَاعَدَهُ**، وهكذا أوْدَعَ كُولومبوسُ ولدَه الصغيرَ ديغو في عِنايةِ رُهبانِ الدَّيْرِ، واتَّجَهَ إلى مدينة **اشبيليةَ**، وكانتْ يومَذاكَ مَركزاً تِجاريّاً مُزْدَهِراً، وكانتْ **جَالِيَةٌ كبيرة من أَهْلِ جَنَوَى تُقيمُ فيها لِلتجارةِ**، فاتّصَلَ كولومبوسُ بمُواطنيهِ هَؤلاء، ولَقِيَ منهم كُلَّ عَوْن، واستطاعَ أنْ يَتعرَّفَ عن طريقهم بِبعضِ التُجارِ الأغنياء من نُبَلاء الإِسْبانِ، من أمْثالِ دُوق «ميدنياسلّى» الذي كانَ يملكُ أسْطُولاً للتجارةِ البحريةِ، وقد رَحَّبَ هذا الدُّوقُ بالمَلاَّحِ الجَنَوِيِّ ومشروعِه وعَزَمَ أنْ يُجَهِّزَهُ

بثلاث من سُفُنِه لِلْقيام بالرحلةِ المَنْشُودَة، ثم تَبيَّنَ له أنَّ المشروعَ أكبرُ من طاقتِه الفَرْديةِ، وأن **كولومبوسَ بِحاجةٍ إلى مَلِك يَدْعَمُ مشروعَه وَيَتَبنَّاهُ، ودَوْلةٍ تَستطيعُ حِمايتَهُ من سَيْطرةِ البُرتُغالِ على طُرُقِ البِحارِ،** وحينذَاكَ عَزَمَ كولومبوسُ على الاستعانةِ بِمَلِكِ فِرَنْسَةَ، غيرَ أنَّ الدُّوقَ صَرَفَهُ عن عَزْمِه، وكتبَ إلى الملكة ايزابيلا يَتَوَسَّلُ إليها أن تنظُرَ إلى مشروعِ كولومبوسَ بِعَيْنِ العَطْفِ والرِّعايةِ، لأَهمّيتهِ وخَطَرِهِ، وألاَّ تَدَعَ صَاحِبَه يَتَجِّهُ إلى مَلِك آخرَ، فتُحرَمَ اسبانيةُ من فَوائدِهِ العظيمةِ ونتائجه الخطيرةِ! وتَلَقَّتِ المَلِكةُ كتابَ الدُّوقِ وأَمَرَتْ بِمَجيء كولومبوسَ إلى **قُرْطُبَةَ!** وهكذا **وَصَلَ الرجلُ إلى العاصمةِ الإسبانيةِ** بعدَ عامَيْنِ من الانتظارِ، وقد ظَنَّ أن آمالَهُ قد غَدَتْ قريبةَ المَنَالِ!

ـ ٢ ـ

استُقْبِلَ كُولومبوسُ في البَلاطِ المَلَكيِّ بقُرْطُبَةَ استقبالاً مُشجِّعاً. **استمعَ الملكُ والملكةُ إلى عَرْضِهِ لِمَشْروعِهِ الكبيرِ** وَوَعَدا بأَنْ يُحِيلا طلَبَه إلى لَجْنَةٍ لِدِراستِه والبَتِّ بشَأنِهِ، وكانَ العرشُ الاسبانيُّ يومَذاكَ في شُغْلٍ شاغِلٍ عن كُلِّ شيء بالحرب الدائرةِ بيدَ الإسبانِ والعَرَبِ في غَرْناطَةَ، فكانَ على كُولومبوسَ أنْ يُقَدِّمَ إلى **اللَّجْنَةِ المُؤلفةِ من بَعْضِ الرُّهبانِ والنُّبلاء خُطوطَ مَشروعِه ويُناقِشَها معَهم،** وينتظِرَ قرارَهم بالمَشُورةِ بِدَعْمِ المَشروعِ أو رَفْضِهِ، وهكذا قَضى صاحبُ المَشروعِ العظيمِ أسابيعَ طويلةً، يُناقِشُ اللَّجْنَةَ الملكيةَ،

وينتقلُ معَها من بلدٍ إلى آخرَ في اسبانيةَ، عندَ انتقالِها الدائب، ولم تكنِ اللَّجْنَةُ في عَجَلَةٍ من أَمْرِها، وقد رَفَضَ بعضُ أعضائها أن يُصَدِّقَ بأنَّ الأرضَ يُمْكِنُ أنْ تكونَ كُرَوِيَّةً، وطالَ انتظارُ كولومبوسَ، والحربُ معَ العَرَبِ طالَ أَمَدُها، والمِلِكةُ ايزابلاّ مَشْغُولَةٌ بها عن كُولومبوسَ ومشروعِه، غيرَ أنها لم تُغْفِلِ الأَمْرَ بإِكْرامِ الرجُلِ وتَقْدِيمِ إِعانةٍ ماليةٍ إِليْهِ، وبذلكَ **أتيحَ لهُ أنْ يُقيمَ في قُرطبةَ فترةً طويلةً**، يَختلِطُ خلالَها بِمُواطِنيه من الجَنَوِيِّينَ المُقيمينَ في العاصمةِ الاسبانيةِ، وهكذا تَعَرَّفَ كُولومبوسُ إلى الشابّةِ الجميلةِ **(بياتْريسَ)** وكانتْ قد أتمتِ العشرينَ من عُمْرِها، **فَتزوَّجها، وَوَلَدَتْ له ابنَه الثانيَ فرديناندَ** عامَ ١٤٨٨.

وأخيراً اجتمعتِ اللَّجْنَةُ المَلكيةُ لِلمرَّةِ الأخيرةِ

بعد قَرابةِ أربعِ سَنَوات من تَأْلِيفِها لِتَصْدِرَ قَرارَها بأنَّ **مَشروعَ كُولومبوسَ خَياليٌّ**، وأنَّ الرِحْلَةَ التي يقترِحُ القِيامَ بها عَبَثٌ، ولكنَّ كُولومبوسَ ظَلَّ مُصَمِّماً على واَقعيَّةِ مَشْروعِهِ، وتَحدَّى اللَّجنةَ بأنَّهُ سوفَ يُحقِّقُ الاكتشافَ المنشودَ، وراحَ يَبحثُ عن أبوابٍ أُخْرى يطْرُقُها لِطَلَبِ العَوْنِ!

كانتْ **مُهمةُ أخيه (بارْتلْميه) في انكلترة قدِ انتهتْ إلى الإخفاقِ أيضاً**، ذلكَ أن مَلِكها هنري السّابعَ كانَ رَجُلاً حَذِراً وحَريصاً على المالِ، وقد استقبلَ (بارْتلْميه) وأَصْغى إلى عَرْضِهِ المُفصَّلِ لِمشْروعِ أخيه، ولكنّه قَدَّرَ أن الرِحْلَةَ المُنتظرة لن تصِل إلى أهْدافِها، فلم يَنْشَطْ إلى تَبَنِّي المَشروعِ، **وهكذا شاء القَدَرُ ألاّ تُصبحَ أمريكا الجنوبيةُ مُستعمره انكليزيةً.**

عند ذلكَ طَلَبَ كُولومبوسُ من أخيهِ أَنْ يَعْبُرَ البحرَ إلى **فرنسةَ** لِيطلُبَ المساعدةَ من مَلِكِها **شارل السابعِ**، فَفَعَلَ، ولم تكُنِ النتيجةُ التي وَصَلَ إليها خيراً مما لَقِيَ في بَلاطِ انكلترة، ولم يَبْقَ أمامَ كُولومبوسَ غيرُ أَنْ ينتظرَ **قَرار اللَّجْنَةِ الثانيةِ** التي أَمَرَ مِلِكُ اسبانيةَ بتأليفِها لدراسةِ المشروعِ من جديدٍ، وصدرَ ذلكَ القَرارُ أخيراً، **فكانَ تأييداً لِقَرارِ اللَّجنةِ الأولى**، وَوجَدَ كولومبوسُ في عام ١٤٩١ م نفسَه أمامَ خَيْبةٍ كاملةٍ، فَعزَمَ على مُغادرةِ اسبانيةَ، واتَّجهَ إلى دَيْرِ (لارابيدا) حيثُ تَركَ طِفْلَه قبلَ بِضْعِ سَنَوات، وهُناكَ حدثَ ما رَدَّ إليه ثِقَتَه بِنَجاحِ مَسْعَاهُ، فقد تَلَقَّاهُ الراهبُ الكبيرُ جُوان بيريز بكُلِّ محبةٍ وعَطْفٍ، وهو قِسّيسُ المَلِكةِ الخاصُّ — كما قَدَّمْنا — وكتبَ إلى المَلِكةِ يَطلُبُ مُساعدتَها

لِكُولومبوسَ، وما أَسْرَعَ ما جاء جوابُها إليه: فقد **أرسلتْ ايزابلاّ لِكُولومبوسَ مَبْلَغاً من المال، لِيَشْتَرِيَ ثياباً فَاخِرَة وجَواداً، ويأتيَ فَوْراً لِمُقابَلَتِها!**

لقد أصبحَ الأمرُ الآنَ لا يَحتاجُ إلى اللِّجانِ، وَوَصلَ كولومبوسُ إلى **غَرْناطَةَ** في الوقتِ الذي تَمَّ فيهِ تَسْليمُ العربِ إياها إلى الإسْبانِ، **واستقبلتِ المَلِكةُ كولومبوسَ** وحدَها، **وأَبْدَتْ مُوافَقَتَها على تَبَنِّي مَشْروعِه،** ثم استُقْبِلَ ثانيةً في البَلاطِ المَلكيِّ، **ووُعِدَ بتقديمِ السُّفُنِ اللازمةِ** لِلقيامِ بالرِّحْلَةِ المنشودَةِ، وكانَ ذلك في عامِ ١٤٩٢ م بعد سَبْعِ سَنَوات منَ الانتظارِ الطويلِ في اسبانيةَ!

لقد جاوزَ كُولومبوسُ الآنَ الأربعينَ من عُمرهِ، ومَلَّ مِن كَثْرةِ ما شَرَحَ المَشروعَ

لِلمسؤولينَ، وقد كانَ أكثرُهم يَنْظُرون إليه نظرةَ هَزْلٍ وٱسْتِخْفاف، وكانَ بعضهُم لا يكتُمُ سُخْرِيتَه بِهِ وهُزْأَهُ، ولكنَّ الرجلَ اعتصمَ بالصَّبْرِ والجَلَدِ، ولَمْ يَرْكَنْ إلى اليأسِ في أَحْلَكِ الظُّروف العَصيبةِ، ولمْ يَقْبَلِ الهزيمةَ بعدَ صُدورِ القَرارِ تِلْو القَرارِ بفَسادِ المَشروعِ وبُطْلانِهِ، بالاستِدْلالِ بِكَثير مِن آياتِ التَّوْراةِ وأَقْوالِ آباء الكنيسةِ، وظَلَّ كُولومبوسُ يتحدّى بإِصْرارِه على إمكانيةِ تَحْقيقِ مَشْروعِه جميعَ الخُصُومِ، حتى تَخَطّى جميعَ العَقَباتِ، ووافقَ البَلاطُ الملكيُّ الاسبانيُّ على تَبَنّي المَشْروعِ وَدَعْمِهِ، وطُلِبَ من كُولومبوسَ أَنْ يُبَيِّنَ **الشروطَ التي يَشْتَرِطُها لِكَشْفِ البِلادِ الجَديدةِ:** فطلَبَ مالاً يكفي لِتَجْهيزِ ثلاثِ سُفُن بالرجالِ والعَتادِ والمُؤنِ، واشترَطَ أَنْ يَتِمَّ تَرْقِيَتُه إلى **رُتْبَةِ أميرِ البحرِ** (أميرالِ

المُحيطِ) فَوْراً، وأَنْ يُجْعَلَ **والياً على جَميعِ البُلدانِ التي يكتَشِفُها**، وأنْ يُعطىٰ **عُشْرَ الثَّرْوَةِ التي سَتُجْنىٰ منَ الأراضي الجديدةِ، معَ ٱمْتِيازِ تحويلِ ألْقَابِهِ وحِصَّتِهِ منَ الثَّرْوَةِ إلى ذُرِّيَتِهِ!**

ودُهِشَ البَلاطُ الملكيُّ أمامَ هذهِ المَطالبِ واعتبرَها غيرَ مَعْقُولةٍ أَبَداً، وصدَرَ أَمْرُ المَلكَيْنِ **برَفْضِ الشُّروطِ المطلوبةِ**، ولكنَّ كولومبوسَ لم يتراجَعْ شَيْئاً عن مَطالِبِه، وخَرَجَ منَ البَلاطِ المَلَكِيِّ عازِماً على مُغادرةِ اسبانيةَ واللَّحاقِ بأخيهِ في فرنسةَ، ولكنّهُ لم يَكَدْ يَبْتَعِدُ بِجوادِهِ عدةَ أميالٍ حتى لحقَ به رسولُ الملكينِ يَسْتَدْعِيه لِلعودةِ إلى البَلاطِ!

لقد قُبلَتْ جميعُ شُروطِهِ، وتَمَّ توقيعُ الاتّفاقِ على ذلكَ في السابعَ عشَرَ من نَيْسان عامَ ١٤٩٢ م وانْطَلَقَ كولومبوسُ لِيَسْتَعِدَّ لِلْقِيامِ بِمُغامرتِهِ البحريَّةِ الكُبْرىٰ.

الباب الرابع

الرحلة الأولى

١٤٩٢-١٤٩٣ م

— ١ —

لم يكُنْ إعدادُ السُّفُنِ والبحَّارَةِ لِلقيامِ بتلكَ الرِّحْلَةِ بالأمرِ السَّهْلِ، إذْ **من العَسِيرِ أنْ تَجِدَ عَدَداً كافياً من المُغامرينَ** الذين يَرْضَوْنَ بأَنْ يُخاطِرُوا بأَنْفُسِهم، مثل كولومبوس، في أعماق المحيط ومجاهل البحار، مهما تكُنِ المُغرياتُ لهم كبيرة، وقد وضَحَتْ هذه الحقيقةُ لِعَيْنَيْ كولومبوسَ إثْرَ وُصولِهِ إلى ميناء **بالُوسَ** لِتَدْبيرِ السُّفُنِ اللازمةِ والعددِ الكافي من البَحَّارَةِ لِلرِّحْلَةِ القادمةِ، وكانَ **الأمرُ الملكيُّ** الذي أعْطيَ لِكُولومبوسَ يَنُصُّ على **تَغْريمِ مدينةِ بالُوسَ** التي امتنعَ أهلُها عن دَفعِ الضرائبِ للدولةِ **بأنْ تُقَدِّمَ على نَفَقَتِها ثلاثَ سُفُنٍ مشحونةٍ بالرجالِ**، وقد أدركَ كولومبوسُ أن المدينةَ التي

تَرفُضُ دفعَ ما عليْها من الضرائبِ يُمكنُها أن تَرْفُضَ إطاعةَ الأمرِ الملكيِّ الذي يَحْمِلُهُ إليها، وذاكَ ما أَيْقَنَ مِنْ حُصولِهِ عندما وَصَلَ إلى بَالُوس وأبرزَ الأمرَ الملكيَّ إلى أهالِيها، فقابَلُوه بالسُّخْريةِ، **وزَعَمُوا له أنَّ جميعَ السُّفُنِ الراسيةِ في ميناء المدينةِ غيرُ صالحةٍ لِلْقيامِ بتلكَ الرِّحْلَةِ إلى المَجْهُولِ!** وقد كادَ اليأسُ يَشُلُّ عزيمةَ كُولومبوسَ وهو الذي قدَّرَ أنَّ آمالَه الكبيرةَ كلَّها قد غَدَتْ قريبةَ التَحقُّقِ بَعدَ تَذْليلِ جميعِ العَقَباتِ الماضيةِ، ولكنَّ الحظَّ لم يَلْبَثْ أَنْ واتَاهُ، حينَ تَعرَّفَ في بالُوسَ إلى **رُبَّانَيْنِ أَخَوَيْنِ شُجاعَيْنِ من آلِ بِنْزُون،** وهُما مارتِن آلُونزو بنزون وشقيقُه فيسنت يانِز بنزون، وهما من ذوي الخِبْرةِ الكبيرةِ في المِلاحة البحريَّةِ، **وفي بعضِ المَصادرِ أنَّ مارتن بنزون كانتْ له رِحْلَةٌ إلى البَرازيلِ عامَ**

١٤٨٩ معَ بعضِ الرَّبابِنَةِ الفرنسيّينَ، وكانوا انطَلقُوا من مدينةِ دِيب، ثم عادُوا من رِحْلَتِهم مُحاذِينَ لِسَاحِلِ افريقية الجَنُوبيِّ، إلى أنْ وَصَلُوا إلى رأسِ الرَّجاء الصالحِ، ثُمَّ رَجَعُوا إلى مدينةِ دِيب، وتقولُ تلكَ المصادرُ إنَّ مارتن بنزون كانَ رجلاً حادَّ الطَّبْعِ، فاختلفَ معَ بعضِ السُكّانِ فوقَ الأرضِ البرازيليةِ، وأطلَقَ عليهم النارَ، فأنَّبَهُ رئيسُه واقتصَّ منه، ولمّا عادتِ السُّفُنُ إلى دِيب شَكَاهُ إلى الحُكومةِ فصادَرَتْ جوازَ سَفَرِهِ ومَنَعَتْهُ من السَّفَرِ بَحْراً، فعادَ إلى اسبانيةَ ماشِياً، والحقُّ أنَ جميعَ **هذه المعلوماتِ بحاجةٍ إلى التحقيق** قَبْلَ الايمانِ بصِحَّتِها، وإلاّ فإنَّ مارتن بنزون هذا يكونُ قد وَصَلَ إلى أمريكا قبلَ كُولومبوسَ، وسنعرِضُ لهذا الأمرِ ثانيةً فيما بعدُ.

عندما التقى كولومبوس بالأخوين الربّانَيْن في بالوس كانا يملكان سفناً. وهنا حقيقةُ أهميتهما، وبعد عناء شديدٍ تمكّن كولومبوس من إعدادِ **أسطولٍ من ثلاثِ سُفُنٍ شِراعيةٍ صغيرةٍ،** بمساعدتهما. وقد دخلتْ هذه السفنُ التاريخَ من أوْسعِ أبوابه. وغدتْ مِنْ أشْهَرِ المراكبِ البحريةِ التي عرفها تاريخ البحار، بعد قيامِها بأعظمِ رحلةٍ فاقتْ بنتائجِها الباهرةِ كلَّ ما أنجزهُ أيُّ إنسان من الرحّالةِ حتى اليومِ!

أولى هذه السفنِ اسمُها «**سانتا ماريا**» وهي أكبرُ الثلاثِ، ولم يكنْ ظهْرُها يزيدُ طولُه عن سبعين قدماً. وقد ضمّتْ خمسين بحّاراً. وجعلَ كولومبوسُ قيادتها لِنفْسِهِ. والسفينةُ الثانيةُ اسمُها «**البِنْتا**» وكانتْ في نصفِ حجْمِ الأولى، وفيها

ثلاثونَ بَحّاراً، وجعل كولومبوسْ قيادتها في يدِ مارتن بنزون، والسفينةُ الثالثةُ اسمُها **(النِّينا)** وهي أصغرُ الثلاثِ، وبحّارتُها حواليْ العِشرين وجُعِلتْ قيادتُها إلى أخي مارتن: فينسنت بنزون، وتؤكِّدُ بعضُ المصادرِ أنّ السفينتيْنِ (بنتا ونينا) كانتا مُلكاً لِلأخويْنِ القائديْنِ، وأنّ اشتراكهما في رحْلةِ كولومبوسَ كان بِدافعِ الطّمعِ والأملِ بالحُصولِ على الثّروات التي كان كولومبوسْ يتحدّثُ عنْ وُجودِها «هُناكَ» أمّا (سانتا ماريا) فقدْ استأجرها كولومبوسْ مِن صاحبِها، وجهّزها من الأموالِ التي قُدِّمَتْ له من العَرْشِ الاسبانيِّ، ومِنَ المبالغِ الأخرى التي قَدّمَتْها إليه الجاليةُ الجَنَويةُ المُقيمةُ في اسبانيةَ!

هذا الأسطولُ الصغيرُ، بِسُفُنِهِ الشراعيةِ

الثلاثِ، وبَحّارته المائةِ من الرجال المغامرين، كانَ يَسْتَعِدُّ للإبحارِ نحوَ المجهولِ في بحارٍ شديدةِ العواصفِ، غيرِ مَأمُونةِ العَواقبِ، وقَدْ قامَ الأخَوانِ بنزون بِدَوْرٍ كبيرٍ في إقْناعِ البَحّارةِ وتَشْجيعِهم للاشتراكِ في الرِّحْلةِ، وكانَ أكثرُ أولئكَ البَحّارةِ من الرِجال الأَنْدَلُسيينَ والباسكيين، وكانَ بينَهُم بعضُ ضُبّاطِ المَلِكِ، وبعضُ المُتَرْجِمين، الذين يُحْسِنُونَ عَدَداً منَ اللُّغاتِ، واشتركَ ابنُ عمِّ بياتريس، زَوْجةِ كُولومبوسَ، في الرِّحْلَةِ، كما التحقَ بها مُوَظَّف مَلكيٌّ لِمُراقبة الحُقوق الماليةِ الملكيةِ، وثلاثةُ أطِبّاء، وعددٌ من الحِرَفيين الذين تَحْتَاجُ إليهم السُّفُنُ، وعَدَدٌ من خُبَراء المَدافِعِ التي كانت السُّفُنُ الثلاثُ مُزَوَّدة بها، وتَذْكُرُ بعضُ المصادر أَنَّ **جُمْلَةَ النُّفوسِ على ظَهْرِ ذلكِ الأسطولِ الصغيرِ لم تَزِدْ على مائةٍ**

وعشرين رجلا؛ وقد حملتِ السُّفنُ لهم من الطَّعامِ والمَؤونةِ ما يكفيهم لِمُدَّةِ عامٍ كاملٍ: من اللَّحْمِ والجُبْنِ والزَّيْتِ والخَلِّ والبَصَلِ والبسكُوتِ، حتى غَدَتِ السُّفُنُ الثلاثُ مُحمَّلةً بأَقْصى طاقتِها!

لقد أصبحَ كلُّ شيء مُعَداً لابتداء الرحلةِ، وجاء اليومُ المُحدَّدُ لإِبْحارِ الأسطُولِ الصغيرِ، وكانتْ **مدينةُ بالُوسَ كلُّها تُبارِكُ الراحِلينَ** عَلَيهِ وتُصلِّي من أَجْلِهم، وكانَ الأميرالُ كولومبوسُ ــ وهو المعروفُ بِعُمْقِ إحساسِه الدينيِّ ــ قد صَحِبَ رجالَهُ جميعاً إلى دَيْر (**لارابيدا**) القَريبِ، **وَصَلَّوْا جميعاً لله، راجينَ أن يُبارِكَ مشروعَهم** ويُنْجحَ مَساعِيَهم، ويُيَسِّرَ أمامَهم الطريقَ الطويلَ إلى هدفِهم العظيمِ، وكان الراهبُ الكبيرُ جُوان بيريز، صديقُ كولومبوسَ ومُشجِّعُهُ الدائمُ ومُعينهُ الوفيُّ، هو الذي قادَ صلاةَ

الرَّجاء، وبارَكَ بِخُشوعٍ وإيمانٍ مَوْكِبَ المُسافرينَ، داعياً لهم الله بالتوفيقِ والسلامةِ.

ورُفِعَتْ أَشْرِعَةُ السُّفُنِ الراحلةِ عند الفجرِ مِنْ يومِ الجُمعةِ في الثالثِ من شهرِ آب عامَ ١٤٩٢، وتَحرَّكَ الأسطولُ الصغيرُ مُبتعِداً عن رصيفِ الميناء، في مدينةِ بَالُوسَ، وبدأَتْ بذلكَ رِحْلَةٌ بحريةٌ هي ـ دونَ رَيْب ـ من **أعظمِ الرِّحْلاتِ** أهميةً **في تاريخِ البشريةِ.**

— ٢ —

كانتِ السفينةُ **(سانتا ماريا)** تسيرُ في المُقدمةِ، وكانَ المودّعونَ من الناسِ في ميناء بَالُوسَ يَنظُرونَ بإشْفاق إلى السُّفُنِ الراحلةِ، ويقولُ أحدُ مَنْ أَرّخُوا حياةَ كُولومبوسَ: «لقد نَظَرَ جميعُ المُوَدِّعِينَ إلى بَحّارة «سانْتَا مارِيّا» و«بِنْتا» و«نِينا» في ذلكَ الوقتِ كما كُنّا ننظُرُ إلى رِجالِ الفضاء الأُوَلِ حينَ انْطَلَقُوا إلى القَمَرِ في رِحْلَتِهم الأولى، ورِحْلَةُ البَحّارةِ كانتْ أَشَدَّ خَطَراً، لأننا نعلَمُ أنَّ القَمَرَ الذي تَنْطَلِقُ إليه المركبةُ الفضائية موجودٌ!» أَمّا هدَفُ أولئكَ البحارةِ فَهُوَ مَجْهولٌ تماماً! ولكنَ كولومبوسَ كانَ شديدَ الايمانِ

بِمَشْروعِهِ والثقةِ بِنجَاحِهِ، **واتّجهتِ السُّفُنِ نَحْوَ جُزُرِ الكَناري**، وهي أَبْعَدُ الجُزُرِ المعروفةِ غَرْباً، وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ من انطلاقِها أصيبَتْ (بِنْتا) بِضَرَرٍ كبيرٍ، بانفصالِ قِسْمٍ من الدَفَّةِ عنها وضَياعِهِ، فاضطُرَّ كولومبوسُ أن يَرْسُوَ بِسُفُنِهِ في مَرْفَأ **(تَناريف)** مدينةِ كَناري لِيَصْنَعُوا لها دَفَّةً غيرَها، وقيلَ إنَّ بعضَ البَحّارةِ قد تَعَمَّدوا تَعْطيلَ تلكَ السفينةِ، لأن شَجاعَتْهم خانَتْهم، وأَمَّلُوا أَنْ يرتَدَّ كولومبوسُ إلى بَالُوسَ لإصلاحِ الدَفَّةِ المَعْطوبةِ!

ولكن كولومبوسَ لم يكُنْ لِيَرْتَدَّ إلى الوراء أبداً، فأسرَعَ إلى نَجْدةِ السفينةِ المُصابةِ، وواصلَ الرِّحْلَةَ حتى جُزُرِ الكَناري، حيثُ قضى شهراً كاملاً في إصْلاحِ الدفَّةِ المكسورةِ، وفي اليومِ السادسِ من أيلول انطلقَ الأسطولُ الصغيرُ مِن جديدٍ في رِحْلَتِه

نحوَ الغَرْب، نحوَ مَصيرِه المَجْهُولِ.

وحكايةُ هذهِ الرحلةِ الاكتشافيةِ الأولى من رِحْلات كُولومبوسَ الأربعِ تعتمدُ على **مُذَكَّراتِهِ اليوميةِ** التي كانَ يُسَجِّلُها يوماً بعدَ يومٍ، ويُخاطبُ فيها مَلكيْ اسبانيةَ، فِرديناندَ وايزابلاّ، وقد جاء في الصفحة الأولى من تلك المذكراتِ:

«أَبْحَرْتُ صباحَ الجُمعة في الثالثِ من آب قاصِداً جُزُرَ كاناري التي تَمْلِكانها، ومن هُناكَ سَأَمْضي في طريقي حتى أَبْلُغَ جُزُرَ الهِنْدِ، ولذا **عَزَمْتُ على أنْ اكتُبَ مُذكراتي طَوَالَ الرِّحْلَة،** فأصفَ في الليلِ أحداثَ النهار، وأصفَ في النهارِ أحداثَ الليلِ، كما أنْوي أَنْ أَرْسُمَ خَريطةَ مِلاحةٍ جديدةٍ أشِيرُ فيها إلى وَضْعِ الأراضي الواقعةِ في البحرِ المُحيطِ بالنسبةِ إلى الرِّياحِ...».

ومن خلالِ هذهِ المذكراتِ اليوميةِ عن الرِّحْلةِ نَعْرِفُ أنَّ **الشُّفُنَ تابَعَتْ طريقَها في الأسبوعِ الاوَّل دُون مُكدِّرٍ**، والآمالُ تَعمرُ صُدورَ البَحّارةِ بالنجاحِ والتوفيقِ، وكانَ كولومبوسُ يُسجِّلُ المسافاتِ التي يَقْطَعُونَها كلَّ يومٍ، وقد لاحَظُوا بعدَ الأسبوعِ الأولِ انحرافاً مُتَزَايِداً في بُوصَلَةِ السفينةِ عنِ الجهةِ الشماليةِ شَطْرَ الشمالِ الغربيِّ، فارتاعَ البحّارةُ لِذلكَ، و«**خافُوا أَشَدَّ الخوفِ**» كما يذكرُ كولومبوسُ في مذكراتِه، وقد نجحَ في تَطْمِينِ نُفوسِهم بِتَعليلٍ قَدَّمَه إليهم ــ وهو تَحرُّكُ النجمِ الشماليِّ ــ فَصدَّق البحّارةُ زَعْمَهُ، وكتمَ هُو قَلَقَهُ في صَدْرِهِ، إذْ لم يَكُنِ الرائدُ العظيمُ يعلَمُ حينذاكَ أن الشَمالَ المغناطيسيَّ الذي تُشِيرُ إليه البُوصَلَةُ ليسَ هو الشمالَ الحَقيقيَّ، وأنَّ اتجاهَهُ يختلفُ باختلافِ

الأماكنِ على سَطْحِ الأرضِ!

وتابعتِ السُّفُنُ رِحْلَتَها نحوَ المَجْهولِ، **ولم تَظْهَرْ في الأفقِ جُزُرُ الهندِ المَنْشُودَةُ**، حتى فَقَدَ البحارةُ صَبْرَهم، وراحُوا يتذمَّرُونَ، واعتقدوا أنَّهم قد ضَلُّوا الطَّريقَ وهَلَكُوا، وألحّ بعضُهم على كُولومبوسَ بوُجوبِ العَوْدةِ، ولكنَّ الرجُلَ الكبيرَ لم يَفْقِدْ شَجاعتَه وإيمانَه وثقتَه بمَشْرُوعِه ونَجاحِهِ القريبِ، فتصدَّى لِلمُتذمِّرينَ، يُقْنِعُهم بأنَّ اليابسةَ غَدَتْ قريبةً منهم، وَوَضَعَ جائزة ماليةً لأَوّلِ بحّارٍ يُبَشِّرُهم برُؤيَتِها!

وظنَّ بعضُ البحارةِ يوماً أنه رأى البرَّ، فانتعشَتِ الآمالُ من جديدٍ في الصُّدورِ، ولكنّهم عند بُروغِ الفَجْرِ تَبَيَّنَ لهم أنَّ ما حسِبُوهُ يابسةً لم يكُنْ غيرَ غَيْمَةٍ مُنْخَفِضَةٍ في الأفُقِ، فكان لهذه الخيبةِ

أَثَرُها في زيادةِ التَذَمُّرِ، وفي اليومِ الحادي عشرَ من تشرين الأولِ بَدَأَتْ علامات مُشَجِّعَةٌ كثيرة تظهرُ لِلأَعيُنِ المُترقبّةِ، فبعدَ **رُؤيةِ أَعْدادٍ منَ الطُّيورِ التي لا يُمكنُ أَنْ تَطيرَ بعيداً جداً عن اليابسةِ** التقطَ البَحارةُ غُصْنَ شجرةٍ وقِطعةَ خشبٍ حَفَرَها إنسان، فأيقَنَ الجميعُ بِقُرْبِهم من البَرِّ، وفي مَساء ذلكَ اليومِ شاهدَ كولومبوسُ نُوراً في الأُفُقِ، وفي الساعةِ الثانيةِ صباحاً رأى أحدُ البحارةِ البَرَّ، وهوَ فوقَ أَعْلى سَارِيةٍ من سَوَارَي النينا فصاحَ يحملُ النبأَ العظيمَ إلى رِفاقِه ويُبَشِّرُهم بذلكَ، وآمَنَ البحارةُ حينذاكَ أنَّ **وُعودَ كُولومبوسَ لهم لم تكُنْ سَرَاباً خَادِعاً!**

— ٣ —

مع إشراقةِ شمسِ اليومِ الثاني **عشر من تشرين الأول من عام ١٤٩٢ ألْقتِ السُّفُنُ الثلاثُ مَراسِيَها على ساحلِ تلكَ الجزيرةِ**، وهَبَطَ الأميرالُ كولومبوسُ عند الصباحِ إلى الأرضِ، وهو يلبسُ حُلّةً فاخرة، ويحملُ العلمَ الإسبانيَّ، وهبَطَ الأخوانِ بنزون من سَفينَتَيْهِما أيضاً، وركع الجميعُ في صلاةِ شُكْرٍ لله، ودموعُ الفرحِ تَفِيضُ من أَعْيُنِهم، فَرَحاً بما حَقَّقُوا من نجاحٍ، **واستولى كولومبوسُ على تلكَ الجزيرةِ باسمِ ملكِ اسبانيا وملكتِها، وسَمّاها جزيرةَ (سانْ سالْفَادُور)** وكانتْ جزيرةً كبيرةً مُستويةً، نَمَتْ فيها أشجارَ الغاباتِ على حافّةِ خليجٍ

أزرقَ، وغَطَّتِ الأزهارُ المُلوَّنَةُ أرضَها، وأسرعتْ **جُموعٌ من سُكّان الجزيرةِ إلى اسْتقبالِ الرجالِ البيضِ القادمينَ**، دُونَ أنْ يظهرَ عليهم أيُّ علامةٍ من علاماتِ الخوف، وكان أولئك السُكّانُ من الهُنودِ، وكان لَوْنُ بَشَرَتِهم غريباً، إذْ لم يكُنْ بالأبيضِ ولا بالأسودِ، وكانتْ وُجوهُهم مُبَرْقَشَةً بأَصْباغٍ عَجيبةٍ، وكانوا يَحملُونَ بأيديهم رِماحاً من القَصَبِ، قصيرةً وفي رؤوسِها أسنانُ كَلْبِ البَحْرِ (سَمَكِ القُرْشِ) ولكنَّهم كانوا يُرسلون نَظَراتٍ وديعةً إلى القادمينَ، وكتبَ كولومبوسُ في مُذكّراتِه يصفُ لقاءه الأوّلَ بهم:

«أَعْطَيْتُ بعضَهم قُبَّعاتٍ مُلَوّنةً، وعُقوداً من الخَرَزِ وَضَعوها في أَعْناقِهم، وابْتَهَجُوا بهذهِ الهَدايا» وكانَ الرجالُ منهم يُمْسِكُونَ بأيديهم لُفَافاتٍ صغيرةً

من أوراقِ الشجرِ، بُنِّيَّةَ اللونِ، وقد أشْعَلُوا فيها النيرانَ، ثم وَضَعُوها في أفواهِهم وملأوا بِدُخانِها رئاتِهم، ثُمَّ نَفَخُوه في الهواء! وكانتْ تلكَ **أولُ مرةٍ يَعرفُ فيها الرجلُ الأبيضُ (سَجايِرَ التَّبْغِ)** وكانَ بعضُ أولئكَ السُكّانِ يَلبسونَ بعضَ الحُليِّ الذهبيةِ الصغيرةِ، فسألَهم كولومبوسُ عن مَصْدَرِها، فأشَارُوا إلى الجَنُوب، وقالوا: إنها جاءتْ إليهم من جَزيرةٍ كبيرةٍ اسمها **(كُوبا)**، وكتبَ كولومبوسُ في مُذكّراتِه:

«كانَ أولُ شيء أثارَ اهتمامي هو البحثَ عن الذهبِ، وقد شاهدتُ عَدَداً من الرجالِ يَضَعُونَ قِطَعاً ذَهبيّةً صغيرة في أنوفِهم، وأَفْهَمُوني بالإِيماء أنّنا إذا ذَهَبْنا نحوَ الجَنوبِ وَصَلْنا إلى جزيرةِ المَلِكِ الذي يَملكُ الأوانيَ الذهبيةَ!».

وهكذا كان على كولومبوس أنْ يُغادِرَ الجزيرةَ نحوَ الجنوبِ الغربيِّ فأقلعَ منها في الرابَع عشرَ من تشرين الأوّلِ، وحملَ معَه سبعةَ أشخاصٍ من سُكّان الجزيرةِ، وفي نِيَّتِهِ أَنْ يَنْقُلَهُم إلى اسبانيةَ، لِيكُونوا شاهِداً حيّاً على نَجاحِ مُهِمَّتِهِ العظيمةِ، واتّجهتِ السُّفنُ نحوَ الجنوبِ الغربيِّ، وظلَّتْ خِلالَ شَهْرَيْنِ تُبْحِرُ من جزيرةٍ إلى أخرى، وكلّما نزلَ كولومبوسُ في واحدةٍ منها ضمَّها إلى أملاكِ إسبانيةَ، بعد أن أَطْلَقَ عليها اسْماً، وفي الثامن والعشرين من تشرين الأوّلِ رَسَتِ السُّفُنُ على سَواحِلِ كُوبا، وراحتْ رُسُلُ كولومبوسَ تبحثُ عَبَثاً عن ملكِ هذهِ الجزيرةِ، ولمّا لم تَهْتَدِ إلى أَحَدٍ عادتْ إلى مُرْسِلِها لِتَرْويَ له ما لَقِيَتْهُ في إحدى القُرى، على بُعدِ خمسةَ عشرَ كيلومتراً، إذ هُرِعَ سُكّانُها إليهم،

وهم مُنْدَهِشُونَ، وراحوا يَتَلَمَّسُونَهم بأيديهم، وهم يَعْتَقِدونَ أَنَّهم هَبَطُوا من السماء!

وفهم كولومبوسُ من سُكّانِ جزيرةِ كُوبا أنَّ الذهبَ يُلْتَقَطُ في جزيرةٍ أخرى، فأمَرَ بالرحيلِ باتِّجاهِها، فتحرّكَتْ (سانْتَا ماريّا) نحوَها، وتأَخَّرَتِ السَّفينتانِ الأُخْرَيَانِ عنِ اللَّحاقِ بها، وكانَ قائداها الأَخوان بنزون يَتَظاهَرانِ بِصُعُوبةِ المِلاحةِ، في حينَ أَنَّهما كانا يَبْحثان عن المعادِنِ الثمينةِ لِيُضيفاها إلى ثَرْوَتِهِما الشَّخْصِيَّةِ، وهذا ما عَرَفَهُ كولومبوسُ وعَدَّهُ خِيانةً له، وهنا نَعُودُ لِلتذْكِيرِ بما كُنا قَدَّمناهُ عن شَخصِيَّة مارتن بنزون وطَمَعِه وحِدَّةِ طِباعِه.

وانطلقتْ (سانْتَا ماريّا) حتى وَصَلَتْ إلى جزيرةِ (هايْتِي) ثُم تابعتْ طريقَها من جزيرةٍ إلى

أخْرى حتى بَلَغَتْ جزيرة سمّاها كولومبوسُ **(سانْ دُومنْجو)** وهناكَ لَقِيَ ملكَ الجزيرةِ المُسمّى (غَاكانا غاري)، الذي قدّمَ إليه هديةً (زُنّارٌ يَحْتوي على قِنَاعٍ بأُذُنَيْنِ مَصْنُوعَتَيْنِ من صَفَائحِ الذَّهَبِ) كما حَمَل إليه أتباعُه هداياهُم من القِطَعِ الذهبيةِ الصغيرةِ!

وخلالَ الليلِ **جَنَحَتِ السَّفينةُ (سانْتا مارِيّا) إلى البَرِّ**، بسببِ إهمال البَحّارِ المَسْؤول عنِ الدَّفَّةِ، **فَتَحَطَّمَتْ على الصُخورِ** المَرْجانيَّةِ وأصبحتْ حُطاماً كامِلاً، وأَسْرَعَ الهُنودُ إلى مُساعدةِ البَحّارةِ لإخْلاء السَّفينةِ الغارِقَةِ، بِشَهامةٍ نادِرَةٍ، وكتبَ كولومبوسُ في مذكّراتِه بعدَ انتقالِه إلى السَّفينة (نِينا).

«كانَ الملكُ غاكانا غاري وأتباعُه يَبْكُونَ على

السَّفينةِ! إن قُلوبَهم مَلأَى بالمَحبَّةِ.. فبعدَ أنْ قَدَّمُوا كُلَّ المُساعدةِ لِتَفْرِيغِ السفينةِ أحْضَرُوا إلينا الخُبْزَ والطَّرائدَ.. وتناوَلُوا معَنا الطَّعامَ، وعندَ الانتهاء منهُ نَظَّفُوا أيديَهم بالأعْشَابِ!»

كانَ **حُزْنُ كُولومبوسَ على غَرقِ السفينةِ عظيماً**، وعَدَّ غَرَقَها كارثَةً، ولكنَّه اعتَصَمَ بالإيمانِ والتَجَلُّدِ، وقرَّرَ أنْ يَبْنِيَ هُناكَ **قَلْعَةً على الشَّاطِىء يترُكُ فيها أرْبَعينَ مِنْ رِجالِ السَّفينةِ الغَريقةِ**، وقد كانَ هؤلاء الرجالُ يَرْغَبُونَ في الإقامةِ هناكَ أمَلاً باكْتِشافِ مَنْجَمِ الذَّهَبِ، **وركبَ بحّارةُ سانْتا ماريَا الآخرون سَفينةَ نينا** التي كانت لِحُسْنِ الحَظِّ قريبةً منهم، **وأقْلَعَتِ السفينةُ عائدة نحوَ الشرقِ**، وعلى ظهرها الأميرالُ كولومبوسُ والهنُود السبعةُ من (سانْ سَالْفَادور) وبينما كانتْ تَمخُرُ عُبابَ البحرِ

ظَهَرَتِ «البنْتا» التي يَقُودها مارتن بنزون، وأسرَعَ القائدُ بِتَقْديم اعتذارِه إلى الأميرالِ عن تَأَخُّرِهِ في اللّحاقِ به. وتظاهَرَ كولومبوسُ بالقَبولِ، وكتبَ في مذكّراته:

«كانتْ أَعْذارُ مارتنَ بنزون كاذِبَةً، فعندما افترقَ عني كانَ هدفَه الطمعُ، فقد أرادَ أَنْ يَسْبقَني إلى جزيرةِ الذَّهَبِ لِيَحْمِلَهُ إلى سَفينتِه، ومع ذلك كتمتُ غَيْظي لِكَيْلا أتركَ مَجالاً لِلخصام» **وهكذا اتّجهتِ السفينتانِ عائدتَيْنِ إلى اسبانيةَ!** وبعد ثلاثةِ أسابيعَ من المِلاحةِ الهادئةِ مَرَّتْ بعضُ الليالي العَاصفةِ، وفَرَّقَتْ بين السفينتينِ الأخْتَيْنِ، ولم تَصِلْ (نينا) التي تحملُ كولومبوسَ إلى **ميناء بالُوسَ إلا ظُهْرَ اليومِ الرابعِ من آذار عامَ ١٤٩٣ م،** فازدحَمَ الميناء بالنّاسِ لاسْتقبالِ المُكْتَشِفِ العائدِ

مع رِجالِه، ولم يكُونوا يتوقَّعونَ أَنْ يَرَوْهُ أو يَرَوْا سُفُنَهُ في مينائهم ثانيةً! وقد وصلتْ سفينةُ كولومبوسَ (النينا) ظُهْراً وَوَصَلَتِ (البِنْتا) بَعْدَها في اليومِ نفسِه، وَوَسَطَ مظاهرِ التكريمِ والترحيبِ بالبطلِ العائدِ **غادرَ كُولو[illegible] بالُوسَ نحوَ قُرْطُبَةَ**، لِيُعانِقَ زوجتَه بياتريسَ وَوَلَدَيْهِ اللذَيْن تركَهما هُناكَ، ثم تابعَ طريقَه إلى بَرْشَلُونَةَ مع فُرسانِ الحَرَسِ الملكيِّ الذينَ جاءوا لِمُرافقَتِه، تكْريماً وتَمْجيداً وتشريفاً للأميرالِ العائدِ، وفي رِكابِهِ كانَ الهُنودُ السبعةُ يَحملون البَبَّغاوَاتِ، وهكذا **دَخَلَ كُولومبوسُ بَرْشَلُونَةَ دُخولَ الأبطالِ الظافرينَ**، وقد أصبحَ بطَلَ الساعةِ في اسبانيةَ كلِّها، واستُقْبِلَ في البَلاطِ الملكيِّ استقبالاً حافِلاً، وأُجْلِسَ إلى يَمينِ المَلِكِ، وعُيِّنَ أميرالاً في الأسْطُولِ الاسبانيِّ، وقد **أصبحَ**

يحملُ لَقَبَ نائبِ الملكِ وحاكِمِ الأراضي الجَديدةِ وراءَ البحارِ، وأصبحتْ أسرتُه كلُّها من النُّبَلاء، وهكذا بلغَ المُكتَشِفُ العظيمُ أَوْجَ مَجْدِهِ، بالإِقْرارِ له بجميعِ الامتيازاتِ التي مُنِحَتْ له ولأُسْرَتِهِ بعدَ أَنْ حَقَّقَ حُلمَه الكبيرَ.

الباب الخامس

الرحلة الثانية

١٤٩٣-١٤٩٦ م

— ١ —

قضى كُولومبوسُ ستةَ أَشْهُرٍ في اسبانيةَ، وهو في ذِرْوَةِ مَجْدِهِ وتكْرِيمِهِ، يَتَنَقَّلُ بين قُرطبةَ وبَرْشَلُونَةَ، وقد حَثَّ المَسؤولينَ على **إرْسالِ الجالياتِ من المُهاجرينَ لاستيطانِ المُستعمراتِ في الأراضي الجديدةِ**، والعملِ على زراعتِها، وكانَ على الإسبانِ أنْ يَتَعَجَّلُوا في ذلكَ قبلَ أن تُسْرِعَ البُرتغالُ إلى مُنافَسَتِهم وتُفْلِحَ في الاستيلاء على تلكَ الجُزُرِ قَبْلَهم.

والحقُّ أنَّ العَرْشَ الإسبانيَّ لم يُضِعِ الوَقْتَ، وقد حَصَلَ أولَ الأَمْرِ على تأييدِ البابا لامْتِلاكِ تلكَ الجُزُرِ، وهو الذي لَقَّبَ الزَّوْجَيْنِ الملكيَّيْنِ بالمَلِكيْنِ

الكاثوليكيَّيْنِ، وقد أُنْجِزَتِ **الاستعداداتُ لِرِحْلَةِ كولومبوسَ الثانيةِ** خلالَ عِدَّةِ أسابيعَ، واهتمَّ المَلِكانِ بإنجازِها، فعُيِّنَ أحدُ مُوَظَّفي البلاطِ من الإداريِّين البارعينَ لِلإشْرافِ على تَجْهيزِ الرِّحْلَةِ بما يَلْزَمُها، وعُيِّنَ مِئاتُ الرجالِ الذين سَيُسافِرون إلى العالمِ الجديدِ مع خَيْلِهم، للإقامةِ هُناكَ، وفي رِفْقَتِهم أعدادٌ من البَنَّائينَ وعُمّالِ المَناجِمِ والمُزارِعينَ، ومعَ هَؤلاء بُذُورُ الحِنْطَةِ وغِراسُ الكَرْمَةِ والحَيَوانات الضروريةُ للاستيطانِ والزراعةِ، مع المؤونةِ اللازمةِ، وانطلقتْ حركةٌ لا تَهدأ، لِبناء سُفُنٍ جديدةٍ، كَبيرةٍ وقَوِيَّةٍ وقادرةٍ على حَمْلِ أَعْدادٍ كبيرةٍ من البَحّارةِ والمُهاجرينَ والمَؤونةِ الكافيةِ لِفَتْرَةٍ طويلةٍ!

وقد تَزَاحَمَ الناسُ هذه المرةَ على الانضمامِ

إلى الرِّحْلَةِ، طَمَعاً في الثَّرَوَاتِ والمعَادِنِ الثمينةِ التي تنتظرُ المُهاجرينَ إلى العالَمِ الجديدِ، وقد أصبح ذلك كُلُّه حقيقةً مَضْمونةً، ولم تَعُدِ الرِّحلةُ إلى ذلك العالَم مُغامرة بحريةً تَضْرِبُ في ظُلُماتِ البِحارِ وَراء هَدَف غامضٍ مجهولٍ!

كانَ **هدفُ هذهِ الرحلةِ الثانيةِ** واضحاً: **استعمارُ تلكَ الجُزُرِ الجديدةِ وإرشادُ سُكّانِها الأصليينَ (الهُنودِ) إلى الإيمانِ باللهِ**، ولهذا شُدِّدَتِ التَوْصِيَةُ بالعِنايةِ بأولئكَ السُكّانِ، وطُلِبَ من المُهاجِرينَ المُسافرينَ أَنْ يُحْسِنُوا مُعامَلَتَهم، ويَتَرفَّقُوا بهم، ليُقبِلوا على اعْتِناقِ الدِّينِ الجديدِ، وَيتِمَّ استيطانُ المُهاجرينَ في تِلْكَ الجُزُرِ دُونَ مَشَقّات أو عَوائقَ.

أما أسطولُ الرِّحْلةِ فقد تَأَلَّفَ من سبعَ عشرةَ

سَفينةً: ثلاث منها كبيرة ضخمةٌ، وأربعَ عَشْرَةَ سفينةً صغيرة، وكانَ عددُ الرجالِ المُسافرينَ عليها حَوالَيْ **ألف ومائتيْ رَجُلٍ**، بينَهم عَدَدٌ من رِفاقِ كُولومبوسَ في رِحْلَتِهِ الأولى، وانضمَّ إليهم **(بارْتِلْميه)** شقيقُ الأَميرالِ، مَعَ بعضِ أصدقائهِ، وقيلَ إنَّ جُمْلَةَ الرُكَّابِ والبَحّارةِ في رِحْلَةِ كولومبوسَ الثانيةِ كانت لا تُقِلُّ عن **ألْف وخَمْسِمائةِ رَجُلٍ**. ومعَهم كثيرٌ من الأَدَوات اللازمةِ لاستعمارِ العالَمِ الجديدِ واستيطانِه.

ـ ٢ ـ

وفي اليومِ الخامسِ والعشرينَ من أَيلول عامَ ١٤٩٣ م أَقْلَعَتِ السُّفُنُ بقيادةِ كُولُومبوسَ، أميرِ البحرِ المُحيطِ والقائدِ العامِّ لِهذا الأسْطُولِ، **من ميناء قَادِسَ**، جَنُوبيَّ اسبانيةَ، **وبَدأتْ اسبانيةُ بذلكَ زَحْفَها في طريقِ التَوَسُّعِ**، **لِتُصْبِحَ أكبرَ دولةٍ استعماريةٍ أَوْربيةٍ**، وتُنشِيءَ امبراطوريةً تَمْتَدُّ إلى أَبْعَدَ من افريقيةَ، لِتَضُمَّ ذلكَ العالَمَ المُكْتَشَفَ الجديدَ، وكانَ كولومبوسُ هوَ الرجُلَ الذي مَهَّدَ لها السبيلَ لِبناء تلكَ الامبراطوريةِ.

وَصَلَتِ السُفُنُ إلى جُزُرِ **(الكَناري)** ــ كما تَمَّ في الرِّحْلَةِ الأولى ــ ثُمَّ أَبْحَرتْ بعدَ تَوَقُّفٍ يَسيرٍ فيها باتِّجاهِ الجَنوبِ، وبعدَ شهْرٍ من المِلاحةِ المُتواصلةِ

وَصَلَ الأسْطولُ إلى بَحْرِ (**كرايب**) وهبَطَ الرُكّابُ في أولى الجُزُرِ، فَأَطْلَقَ كولومبوسُ عليْها اسمَ (**دُومِينيكَ**) وهو اسمُ والِدِه الحائكِ الجَنَوِيِّ الفقيرِ الذي لم يَحْلَمْ يوماً بأنْ يَعْرِفَ اسمُه مثلَ هذا التكريمِ والخُلودِ.

لاحظَ كولومبوسُ ومُرافقوه بِدَهْشَةٍ وخَوْف وَحْشِيَّةَ سُكّانِ تلكَ الجُزُرِ، في حينَ أنَّ الرِحْلةَ الأولى كلَّها حَفَلَتْ بِذِكْريات حُلْوَةٍ عَنْ وَداعةِ السُكّانِ الهُنودِ ومُسالَمَتِهم وحُسْنِ استقبالِهِم للمُسافرينَ الوَافِدينَ علَيْهم!

وبعدَ شهرينِ من بِدايةِ الرِّحْلةِ الثانيةِ وصلَ كولومبوسُ بِسُفُنِهِ إلى جَزيرةِ (**هَايْتي**)، فأَسْرَعَ الأميرالُ إلى القَلْعَةِ التي شادَها على شاطِىء (**سانْ دُومنجو**) وخَلَّفَ فيها أربعينَ مِنْ بَحّارةِ (سانْتا

مارِيّا) التي غَرِقَتْ في الرِّحْلَةِ الأولى، لِيُتابعوا البحثَ عن مَنْجَمِ الذَّهَبِ، وكَمْ كانتْ دَهْشَةُ كولومبوسَ عظيمةً حينَ **وجَدَ القلعةَ مَخْرُوقَةً، ولَمْ يَعْثُرْ فيها على أَثَرٍ لأولئكَ البحّارةِ،** فَحَزِنَ بالغَ الحُزْنِ، وعلمَ من بَعْضِ السُكّانِ الهُنودِ أنَّ أولئكَ الرجالَ ذَهَبُوا يَبْحَثُونَ عن الذَّهَبِ في مَناطِقَ بعيدةٍ وهَلَكُوا!!

لم يكُنْ أمامَ كُولومبوسَ أَنْ يَلْتَفِتَ إلى الوراءِ، ويُطيلَ الأسى على ما فَاتَ، وقَرَّرَ أَنْ يَبْدأَ فَوْراً **بإقامةِ مُستَعْمَرةٍ جديدةٍ في جزيرةِ (هايْتي)،** واجتمعَ رجالُ السُّفُنِ جميعاً للاحتفالِ بتَشْييدِ **مَدينةِ (ايزابيلاّ) أولى المُدُنِ في العالَمِ الجديدِ،** وانكَبَّ المُكْتَشِفُ العظيمُ والمَلاَّحُ الماهرُ على تَأسِيسِ تلكَ المدينةِ والقيامِ بإدارتِها وتنظيمِ شُؤونِها، والاخْذِ

بأيْدي أولئكَ المُهاجرينَ القادمينَ الحالِمينَ بالثَّرواتِ والذَّهَبِ، لِيُدْرِكُوا أنَّ **تحقيقَ الأحْلامِ لا تَتِمُّ إلا بِبَذْلِ الجُهودِ والعَرَقِ والسَّهَرِ والجِدِّ المُتَواصِلِ**، وقد **بدأتِ المُشكِلاتُ تُواجِهُ أولئكَ الحالمينَ** المُتَعَجِّلينَ لِلحصُولِ على الثَّرَوَاتِ: وأولى تلكَ المُشْكِلاتِ تَتمثَّلُ في **آخْتلافِ المُناخِ** الذي لم يَعْهَدِ المُهاجرونَ مِثْلَهُ في اسبانيةَ، فأصابَهم المرضُ حتى **أنْهَكَ مُناخُ هايتي قُواهُم**، ثُمَّ بَدَأوا يَستَرِدُّون عافيتَهم شيئاً فشيئاً، وقد ظلُّوا دَوْماً بحاجةٍ إلى مَزيدٍ من الأَدْويَة والمُؤنِ، ولهذا أرسلَ كُولومبوسُ اثنتيْ عَشْرَةَ سفينةً من الأسطول إلى اسبانيا في طَلَبِ المُؤنِ والأَدْويةِ، وكانَ يُوصي المُهاجرينَ دائماً بأَنْ يُحْسِنوا مُعاملةَ الهُنودِ، ويُشَدِّدُ على الجُنودِ أن يُراعُوا ذلكَ في احتكاكِهم بالسُكّانِ

الأَصْلِيّينَ، لِيَظَلّوا مُسالِمِينَ مُوادِعِينَ، فالسَّلامُ هو الشَّرْطُ الذي يَتَمكَّنُ المُهاجرونَ في ظلالِهِ من اسْتِغْلالِ الأرضِ وزِراعتِها والحُصولِ على الثَّرَواتِ المَوْجودةِ فيها.

واصطحبَ كولومبوسُ ستةَ رَجُلاً في ثلاثِ سُفُنٍ، لاكتشافِ الجُزرِ القريبةِ الأخرى حتى وَصَلَ إلى جزيرةِ **(جَامَايْكا)** التي كانَ سُكّانُها الأَصليُّونَ من المُحاربينَ الأشِدّاء، يَستخدمونَ القِسِيَّ والسِّهامَ في حُروبِهم، ثم عادتِ السُّفُنُ الثلاثُ إلى سَواحلِ جَزيرة (كُوبا)، وكانَ الوقتُ صَيْفاً، والكنَّ العواصفَ والرُّعُودَ كانتْ لا تكِفُّ عن الزَّمْجَرةِ، ومَرِضَ كولومبوسُ من الإعْياء والإنْهاكِ، فارتَدَّ إلى مُستعمرةِ (ايزابلاّ) فَوَجَدَ المُستوطِنينَ فيها يُعانُونَ أَشَدَّ الضِّيقِ من **نَقْصِ الأَدويةِ والملابسِ والموادّ**

الغِذائيةِ، وقد ساءهُ أن يَنْشَبَ **النزاعُ بينهم وبين الهُنودِ**، فانصرفَ إلى إعادةِ الهُدوء والنظامِ في المستعمرةِ، واستخدامِ الهُنودِ في الأَعْمالِ الزراعيةِ وتَعْليمِهم اللُّغَةَ الاسبانيةَ لِتوطيدِ دعائمِ التفاهُمِ بين الفريقيْنِ، وتسهيلِ اعتناقِهم لِلمَسيحيةِ!

غيرَ أنَّ **المُشكلاتِ ازدادتْ حِدّةً بعدَ اكتشافِ أوَّلِ منجمٍ لِلذَّهبِ عامَ ١٤٩٥ م**، إذْ كَلَّفَ كولومبوسُ أخاه بارتلْميه بالاشرافِ على استخراجِ الذَّهَبِ منه، فَنَشِطَتِ الدسائسُ مِنْ قِبَلِ الحُسَّادِ، وراحُوا يُرسِلُون الوِشايَةَ تِلْوَ الأخرى إلى اسبانيةَ، افتراءً على كُولومبوسَ، وكَيْداً له، فلَمّا عادتْ مَراكبُ التموينِ من اسبانيةَ كانَ على مَتْنِها **مَبْعُوث ملكيٌّ مُكَلَّف بالتَّحقيقِ في تلكَ الوِشاياتِ!**

وغَضِبَ كولومبوسَ أشدَّ الغَضَبِ، واعتبرَ **إيفادَ المُحَقِّقِ إهانةً بالغةً لهُ**، فَفَوَّضَ الأمورَ إلى أخيهِ (بارْتِلْميه) **وعادَ إلى اسبانيةَ عامَ ١٤٩٦ م لِيُواجِهَ زُمْرَةً من الخُصومِ الحاسِدينَ له** الذين كانوا في البَلاطِ الاسبانيِّ الملكيِّ، يَفْتَرُونَ عليه، ويُوغِرُونَ الصُّدورَ عليه.

كانتْ رحلَةُ العَوْدةِ هذه المرةَ إلى اسبانيةَ كئيبةً حزينةَ مُضْنِيَةً، فقد أصِيبَ الرجُلُ العظيمُ بِجُرْحٍ في أَعْماقِ نَفْسِه، **وجُوزِيَ على إخْلاصِهِ لِلعَرْشِ الاسبانيِّ بالنّكْرانِ**، وقُوبِلَ وَفاؤهُ لهُ بالظُّلْمِ والإساءةِ، ومن أينَ لهُ أنْ يعرِفَ حينَذاك أنَّ ما أصابَه مِنْ أذى لم يكُنْ غيرَ مُقدّمةٍ لِمأسَاةِ النُّكْرانِ التي سَتَتَعَدَّدُ فُصولُها في السنينَ القادمةِ من حياتِه؟

الباب السادس

الرحلة الثالثة

١٤٩٨-١٥٠٢ م

— ١ —

وصلَ كُولومبوسُ إلى مِيناء (قادِسَ) في الحادي عشرَ من حزيران ١٤٩٦ م بعد رحلةٍ بحريةٍ مُضْنِيةٍ استمرَّتْ ثلاثةَ أشهرٍ، وسيُمْضي سنتَيْنِ في اسبانيةَ هذه المرةَ قبلَ أنْ يُغادِرَها في رحلتِهِ الثالثةِ إلى العالَمِ الجديدِ. رَجَعَ الرَجُلُ العظيمُ إلى أسْرته ووَلَدَيْهِ، وكانَ وَلَداه بعدَ اكتسابِهما امتيازاتِ النَّبالَةِ يَعملانِ في البَلاطِ الملكيِّ، في خِدْمَةِ وَريثِ العَرْشِ، ولم تتأخَرْ **مُقابلةُ الملكيْنِ لِلأميرالِ العائِدِ**، فقد استَقْبَلاهُ بالتَّرْحيبِ، وأَصْغَيا إلى دِفاعِهِ عَنْ نفسِه، **وقد استطاعَ الرجلُ الشَّريفُ أَنْ يُقْنِعَ الملكَيْنِ باستقامتِه** ونجاحِ عَملِه، وتَبيَّن لِلملكينِ أنَّ ما بلغَ

البَلاطَ الملكيَّ من أَخبارٍ ضِدَّهُ لم تكُنْ غيرَ مُفْتَرَيات حاكَها بعضُ الحاسدينَ الجَشِعينَ الذينَ مَنَعَهم كولومبوسُ من أنْ يَسْتَأثِروا لأنفسهم بأموالٍ هيَ من حَقِّ خَزينة العَرْشِ الإسبانيِّ! وابتهجَ كُولومبوسُ عندما **جَدَّد المَلِكان ثِقَتَها الكاملةَ بهِ**، وطَمْأَنَاهُ على جَميعِ حُقوقهِ وامتيازاتِه التي اكتَسَبَها بِجِدِّهِ وصَبْرِهِ ونَجاحِهِ في اكتشافاتِه الخطيرةِ، و كِفايَتِه في القيامِ بِمُهِمَّتهِ! وقدِ انتهزَ كولومبوسُ الفُرصَةَ المُواتيةَ فأثبتَ الحُقوقَ الوِراثيةَ في الأَلْقَابِ والمَكَاسِبِ الماليّةِ التي تَعُودُ عليه من المُستعمراتِ الاسبانيةِ لأسْرَتِه: فمنحَ ابنَه البِكْرَ حِصَّتَهُ من ثُمْنِ تلكَ المَكاسِبِ، على أَنْ يَرِثَهُ أخوه الأصغرُ في حالِ وفاتِهِ، ثُمَّ عمُّهُ بارْتِلْميه، وبذلكَ ضَمِنَ كولومبوسُ مُستقبلَ أسرتِهِ، ثُمَّ انصرفَ إلى تَهْيئةِ نفسِهِ **لِلقيامِ**

بِرِحْلَتِهِ الاكتشافيةِ الثالثَةِ، فَطالبَ بتجهيزِ ثَماني سُفُنٍ للاستعمارِ وسِتِّ سُفُن لِمُواصَلَةِ الاكتشافِ، وعلى الرغم من أَنَّ خزينةَ اسبانيةَ لم تكُنْ في ذلك الحينِ قادرةً على تَلْبيةِ مَطالِبه، فقد اهتمَّتِ الملكةُ ايزابلاّ نفسُها بالأَمْرِ، وجَهَّزَتْ له سِتَّ سُفُنٍ، واقْتَرَضَ كُولومبوسُ أموالاً من بَعْضِ المَصارِفِ مِنْ مُواطنيه الإيطاليينَ، وأَقْلَعَ بأسطُولِهِ مُبْحِراً في الثلاثينَ من أَيّار عامَ ١٤٩٨ م باتجاهِ افريقيةَ. وعندما وصل إلى جُزُرِ **(الكناري)** طَلَبَ من ثلاثِ سُفُن أن تُبْحِرَ مُباشَرَة نحو المُستعمرةِ الاسبانيةِ، وقادَ هو السُّفُنَ الثلاثَ الأخرى **نحوَ الرأسِ الأَخْضَرِ**، إذْ كانَ يُريدُ **التَأكُدَ من وُجودِ قارَّةٍ باتجاهِ الشَّرْقِ**، وبعدَ عناء شديدٍ، ومَرَضِ الأميرالِ من شِدّةِ الحَرِّ والأَرَقِ دَفَعَتِ الرِّيحُ مَراكبَه نحوَ

الغَرْبِ، وَدَنَتْ من جزيرةٍ قُرْبَ ساحلٍ **(هو الآنَ ساحلُ فِنْزويلاّ)** ودارَتِ المراكبُ حولَ تلكَ الجزيرةِ ثمَّ دخلتْ **خليجَ (باريا)** لِيُشاهِدَ ركابُها للمرَّةِ الأولى طرَفَ البرِّ من **قارَّةِ أمريكةَ الجَنُوبيةِ،** وظنَّها كولومبوسُ في البِدايةِ جزيرةً، ولكنه عندما رأى الماءَ الغَزيرَ الذي يَنْصَبُّ من **نَهْرِ (اورينوكو)** حكَمَ أنَّ البلادَ قارَّةٌ كبيرةٌ، وأصابَتْهُ الدَّهْشَةُ عندَ رُؤيتهِ بعضَ سُكّانِها، فهم لم يَكُونوا سُودَ البَشَرةِ كما تَوَقَّعَ، بلْ كانُوا أَقَلَّ سَواداً وأجملَ قَواماً، وكانَ شَعْرُهم طَويلاً مُسْتَرْسِلاً غيرَ مُتَجَعِّدٍ!

لم يستَطِعْ كُولومبوسُ أن يَهْبِطَ إلى البَرِّ، لِلآلامِ التي كانَ يُعانيها مِنْ مَرَضِ عَيْنَيْهِ، وطافَ بِسَفِينَتِه على طُولِ السّاحِلِ الأخضرِ الجميلِ، ثُم أَمرَ بمُتابعةِ الإبْحارِ نحوَ المُستعمرةِ الاسبانيةِ، وكتبَ رسالةً إلى

البَلاطِ الملكَيِّ في اسبانيةَ يتحدَّثُ فيها عن اكتشافِه العظيمِ **للقارَّة التي لم يكْتَشِفْها أحدٌ قبلَهُ.**

كان لهذهِ الرسالةِ أثرٌ خطيرٌ: فقد هَبّ كثيرٌ من الرُوَّادِ بعدَ إذاعةِ مَضْمُونِها، لاقتفاء أَثَرِ كُولومبوسَ، يُحاولونَ الوُصولَ إلى مَنَاطِقَ جَديدةٍ، لَيكسَبُوا منها الثَّروةَ والمجدَ، وكانَ بين أولئكَ الروّادِ واحِدٌ من المَلاَّحينَ اسمُه **(أَمْريكو فيسبوتشي)** الذي سَيصلُ إلى سَواحلِ فِنْزويلاّ بعد كُولومبوسَ، **ويصبحُ اسمُه (أمريكو) عَلَماً على (أمريكة) كلِّها** فيما بَعْدُ!

ـ ٢ ـ

عندما وصلَ كولومبوسُ إلى المُستعمراتِ الاسبانيةِ في (**هايْتي**) وجدَها في حالةٍ يُرثى لها من الاضطرابِ والفَوْضى: فقد **انقسمتِ الجاليةُ الاسبانيةُ فيها إلى فَرِيقَيْنِ**، فريقٍ معَ أَخَوَيْ كولومبوسَ: بارتْلمية وديغو، وآخَرَ ضِدَّهُما، وهذا الفريقُ الثاني المُتمرِّدُ لم يتأخَرْ عن إثارةِ قَبائلِ الهُنودِ على الفريقِ الأَوَّلِ، واشتعلتِ **الحربُ بين الفريقينِ**، وعَمَّتِ الفَوْضى، ولكنَّ كولومبوسَ عندَ وُصُولِهِ تمكَّنَ من القَضاء على الثَّوْرَةِ، وحَسَمَ الفِتنةَ، وسمَحَ لِلمُتمرِّدينَ بالعَوْدةِ إلى اسبانيةَ. فعادتْ جَماعةٌ من أَشَدِّ الثائرينَ عداوة لِكولومبوسَ

وأَخَوَيْهِ، وراحَتْ تَملأُ عليهِ الدُّنيا في اسبانية ضَغَائِنَ وأَحْقاداً، وتَتَّهِمُه مع أَخَوَيْهِ بإخفاء ثَرَواتِ البِلادِ الجديدةِ للاستئثارِ بها، وتَنْقُلُ عن أَخَوَيْهِ سُوء معامِلتِهما للجاليةِ الاسبانيةِ والهُنودِ على السَّواء، وتَصِفُهُما بأنّهما غيرُ جَديرَيْنِ بتمثيلِ العَرْشِ الاسبانيِّ في العالَمِ الجديدِ!

وتناقَلَتْ حاشِيَةُ البَلاطِ الملكيِّ هذهِ الاتّهاماتِ، وكانَ في الحاشيةِ بعضُ خُصومِ كُولومبوسَ الحاسدينَ، وعندما أَسَرَ رِجالُ كولومبوسَ كثيرين من السُّكّانِ الهُنودِ، في الحربِ الدائرةِ هُناكَ، وبَعَثوا خَمْسَ سُفُن إلى اسبانيةَ مَشْحونةٍ بالأسرى عَبيداً، غضبتِ الملكةُ ايزابلاّ من ذلكَ وقالتْ: مَنْ أباحَ لهم أنْ يأسِرُوا هؤلاء المساكينَ! وأمرَتْ أنْ يُنادى في اشبيليةَ وغِرْناطةَ وبقيةِ المدُنِ

الاسبانيةِ الكبيرةِ بِعَتْقِ كُلِّ العَبيدِ الذين أُتِيَ بهم من جَزائرِ الهِنْدِ الغربيَّةِ أخيراً، فَمَلأَ الغيظُ قُلوبَ الناسِ الذينَ أصابَتْهم الخسارةُ بهذا العَتْقِ، والتَقَتْ جُموعُهم لِلتظاهُرِ مُتَظلِّمينَ من كُولومبوسَ وأَخَوَيْهِ، واجتمَعوا في ساحةِ الحَمْراء وعَلا صِياحُهم، وأَصْغَتِ الملكةُ إلى شَكْواهم واستيائِهم، وصَدَرَ الأمرُ بتَعْيينِ حاكِمٍ جديدٍ لِلمُستعمراتِ الجديدةِ وراء البِحارِ، واسمُه (بُوبادلا) وهو واحدٌ من رِجالِ الحَرَسِ الملكيِّ، الذينَ يكرهونَ كُولومبوسَ ويَحْسِدُونَه على المَكانةِ التي نالَها في البَلاطِ الملكيِّ، وفي قُلوبِ الناسِ، وكُلِّفَ الحاكمُ الجديدُ لِهاتِيَ، بالتّحقيقِ في الشّكاوى والاتِّهاماتِ ضِدَّ كُولومبوسَ وأَخَوَيْهِ.

وفي الثالثِ والعشرينَ من آب عامَ ١٥٠٠م

وصلَ **بُوبادلا** الحاقِدُ إلى هايتي، وآستَوْلى على قَصْرِ الأميرالِ **وقَبَضَ عليهِ وسَجَنَ أخَوَيْهِ، وأَمَرَ بِوَضْعِ الأغْلالِ في أقْدامِهِم**، وسُجِّلَتِ الاتهاماتُ التي احتَشَدَ لها خُصومُ أسرةِ كولومبوسَ وأعداؤه، وخُلاصَتُها أنَّهم مُرتَشُونَ ظالِمُون عُتاة، وأُلْقِيَ بالإِخْوةِ الثلاثةِ في سَفينةٍ، وهم مُكَبَّلُونَ في قُيودِهم، لِتَنْقُلَهم إلى اسبانيةَ، **وصبرَ الرجلُ العظيمُ على المِحْنَةِ** وآستَسْلَمَ لِمَصيره، فقد أَدْرَكَ وهو في عُمْقِ مَأساتِه الكبيرةِ أَنَّهُ **إنسان فاضلٌ، يعيشُ في عَصْرٍ وَحْشيٍّ**، وأنّ حُسّادَه الكثيرينَ من الإِسْبانِ لم يَنْسَوْا أنّه أجنبيٌّ عنهم، وأنّه بَلَغَ بِنَجاحِهِ حداً من المَجْدِ والسُلطانِ يَدْفَعُ التافهينَ إلى الكَيْدِ لهُ حَسَداً وحِقْداً، وكَذِباً وافْتِراء، وعندما حاولَ رُبّانُ السفينةِ العائدةِ بهِ وبِأَخَوَيْهِ إلى اسبانية

ـ وكانَ رَجُلاً شَهْماً طيِّباً ـ أن يَفُكَّ قُيودَ كُولومبوسَ رَفَضَ الأَميرالُ السَّجينُ بإباء أَنْ يَقْبَلَ بذلكَ، وأصرَّ على أنْ يَظَلَّ مُكبَّلاً بها، حتى يُفَكَّهَا المَلِكان بأَيْدِيهما عندَ إعْلانِ بَراءتِه من كُلِّ التُّهَمِ الكاذبةِ التي لُفِّقَتْ ضِدَّه، ثم يَحْتَفِظَ بقُيوده تِذْكاراً للجزاء الذي نالَهُ على طَوِيلِ إخْلاصِهِ وتَضْحِياتِه ووفائِهِ للعرشِ الإسبانيِّ! وكَتَبَ كُولومبوسُ رسالةً طويلةً في الدفاعِ عن نفسِه عَبَّر فيها عن آلامِ نفسِه الكبيرةِ لِمَا أصابَه من ظُلْمٍ وإذْلالٍ، وخَتَمَها بقَوْل:

«لَوْ أَنَّني أَخَذْتُ جُزُرَ الهِنْدِ وسَلَّمْتُها إلى الأَعْداء، لما لَقِيتُ مثلَ هذا العِقابِ!».

واطَّلَعَتِ الملكةُ على حالِ كُولومبوسَ
وأَخَوَيْهِ بعدَ شهرٍ ونِصْفٍ من عودتِهم إلى اسبانيةَ،

فَرَقَّ قلبُها لِما أصابَهم من ظُلْمٍ ومَهانَةٍ، وأدركتْ أنَّ الرجلَ العظيمَ بَذَلَ حياتَهُ وجُهودَه في خِدْمَةِ التّاجِ، بإخلاصٍ واسْتِقامةٍ، وأنَّ عليها أَنْ تَحْمِيَهُ من أَذَى خُصومِه وحُسّادِه الكثيرينَ، فأَمَرَتْ بإطْلاقِهِ من قُيودِهِ، **واستقبلتْه مع زَوْجها في البَلاطِ بإكرامٍ وإجْلالٍ،** تعويضاً عمّا أصابَهُ، ويُقالُ إنها بَكَتْ عندما قَصَّ عليْها مأساتَه، والجزاء الذي لَقِيَهُ بعدَ عُمْرٍ من الإخْلاصِ والوفاء وخِدْمةِ العَرْشِ الإسبانيِّ والدينِ المسيحيِّ! وقد اسْتَطَاعَ هذا الاستقبالُ الوُدِّيُّ أن يَسْتَلَّ مِنْ قَلْبِ الرجُلِ العظيمِ أحْزَانَهُ، وَوَعَدَهُ المِلِكانِ بإعادةِ امتيازاتِه كاملةً، وأنْ تأخُذَ العَدالةُ مجراها، ثم **صَدَرَ أمرُهما بأنْ يُتاحَ للأميرال كُولومبوسَ أنْ يُواصِلَ سلسلةَ اكتشافاتِه في رِحْلَةٍ رابعةٍ،** بعيداً عن جزيرةِ هايْتِي والمستعمراتِ التي

أنشأها فيها، كما صدرَ أمرُ الملكين بعزلِ بُوبادلا من ولايتِه عليها، وعُيِّنَ حاكمٌ آخرُ جديدٌ لها، تَرْضِيَةً لِكُولومبوسَ وتكريماً له.

وقبلَ أن يُبْحِرَ كولومبوسُ في رحلتِه الرابعةِ، فَوَّضَ ابنَه الأكبرَ ديغو بقبضِ وارداتِ أبيهِ المُخَصَّصةِ لهُ من المناطقِ المُكْتَشَفَةِ وأوصاهُ أن يُنْفِقَ عُشْرَها على الفُقَراء والمُحتاجينَ، وأن يَدْفَعَ عُشْراً آخَرَ إلى خزينةِ جَنَوى، وَطَنِ كُولومبوس ومَسْقَطِ رأسِهِ، وأن يُعطِيَ لِزَوْجَةِ أبيهِ بياتريسَ مَبْلَغاً سَنَوياً كبيراً وأن يُعْنى بها كأنّها أمُّهُ، ويُواليَ البرَّ بها طَوالَ حياتِها.

الباب السابع

الرحلةُ الرابعةُ والأخيرةُ

١٥٠٢-١٥٠٤ م

غادَر كولومبوسُ مِيناء قادِسَ ومعَه مائةٌ وخمسونَ بَحّاراً على مَتْنِ أربعِ سُفُنٍ، **وأمِرَ ألاّ يَنْزِلَ في جَزيرةِ هايْتي، خَشْيَةَ أنْ يَنْشَبَ نِزاعٌ بينَه وبينَ الحاكِمِ الجديدِ الذي عُيِّنَ لإدارتِها**، وكانَ إقْلاعُ السُّفُنِ في التاسعِ من أيار عامَ ١٥٠٢م، وعندما وصلَتْ إلى قُربِ (هَايْتي) بعدَ **اكتشافِ جَزيرةِ المارتينيك** ثارَتِ العواصفُ البحريةُ الشديدةُ التي كانَ كُولومبوسُ قد تَنَبَّأَ بِهُبوبِها، وطلبَ من الحاكِمِ الجديدِ أنْ يَسْمَحَ لِسُفُنِهِ بالالْتِجاء إلى السَّاحِلِ، فَرَفَضَ الحاكمُ طلَبَهُ، وكانتْ سُفُنٌ كثيرة عندَ مَصَبِّ نهرِ **(أوزاما)** على أهْبَةِ السَّفَرِ إلى إسبانيةَ، فاضْطُرَّ كُولومبوسُ إلى الالتجاء إلى مَصَبِّ نهرِ

(**جَايْـما**) القريبِ لِحمايةِ أسطولِه منَ العاصفةِ، وفي اليوم التالي أَقْلَعَتِ السُّفُنُ الذاهِبَةُ إلى اسبانيةَ فَدَمَّرَتِ العاصفةُ أكثرَها وكانتْ واحدة من السُّفُنِ الغَريقةِ تحملُ على مَتْنِها (بوبادلا) الحاكمَ السابقَ الذي عانىٰ كولومبوسُ من حِقْدِهِ عليْهِ ما رأَيْناهُ مِنْ قَبْلُ، كما كانَ على مَتْنِها أحمالٌ من الذَّهَبِ وسائرِ المَعادِنِ الثمينةِ الأُخرى، ونَجا أسطولُ كولومبوسَ بِفَضْلِ يَقَظَتِهِ، وبَعْدَ أهوال يَطُولُ وَصْفُها وَصَلَ بِسُفُنِهِ إلى **البَرْزَخِ المُوصِلِ بينَ أَمْريكةَ الشماليةِ وأَمْريكةَ الجَنوبيةِ**، فوقَ بحرٍ هائِجٍ مُزْبِدٍ، وأمطارٍ كالطُّوفانِ، ورُعودٍ وبُروقٍ قَاصِفَةٍ، وظَلَّتِ السُّفُنُ طَوَالَ عِدَّةِ أشهرٍ تُواصِلُ إبحارَها بِمُحاذَاةِ سَوَاحِلِ (**نيكاراغوا**) و(**كوسْتاريكا**) حتى بَلَغتْ (**باناما**)، وعندَ أَضْيَقِ نُقْطَةٍ في بَرْزَخِ باناما، حيثُ لا يَفْصِلُ

بين المُحيطَيْن الأَطلسيِّ والهادي أكثرُ من خمسةٍ وثلاثينَ ميلاً قضى كولومبوسُ أسْبُوعَ رأسِ السنةِ الجَديدةِ (١٥٠٢م) واحتفَلَ الرُكّابُ بِعيدِ الميلادِ، وعندما وَصَلتِ السُّفُنُ إلى سَاحِلِ **(جَامَايْكا)** ـ بعدَ عودتِه عن طريقِ (كُوبا) وتزوُّدِه بالزادِ من أهاليها ـ جَنَحَتْ في مَكانٍ يُسَمّى **«كهف كريستوفُورَس»** إلى الآنِ، وغَرِقَتْ على الشاطئ، دُونَ أن تَفْقِدَ أحداً من رجالِها، فجَرَّها المَلاّحونَ إلى اليابِسَةِ، وحَوَّلُوها إلى مَساكنَ واستقرُّوا فيها، **وقضى المُكْتَشِفُ العظيمُ سنةً في جزيرة جامَايْكا**، لَقِيَ في أول الأمرِ من سُكانها تَرْحيباً، ثُمّ تغيَّرَتْ مُعامَلتُهم بعد أَنْ أساء إليهم الرجالُ البيضُ القادمونَ، فابتَعدُوا عنهم ومَنَعُوا الزّادَ أنْ يَصِلَ إليهم، ولكنَّ الأميرالَ الداهيةَ عرفَ كيف يَقْضي

على تَمرُّدِهم بِحِيلةٍ ذَكيَّةٍ، حينَ نَبَّأَ لهم بِخُسوفٍ يَحْصَلُ للقمرِ قَريباً ــ وكانَ عَرَفَ ذَلكَ بالاستنادِ إلى تَقْويمٍ أَلْمانيٍّ (رُوزنَامَة) لِعامِ ١٤٧٤ يَتَنَبَّأُ بِحُصولِ الخُسوفِ في ذلكَ الوقتِ ــ وأوهَمَهم أنّه وحدَهُ القادِرُ على أن يَضَعَ له حَدّاً، وعِندما وقعَ الخُسوفُ فِعْلاً، خَافَ السُكّانُ الأصليُّونَ وأَقْلَعُوا عن تَمرُّدِهم وعاوَدُوا مُسالمَةَ كُولومبوسَ ورجالِه!

وكانَ كولومبوسُ قد أرسلَ يَطلُبُ النجدةَ من الجَزائرِ الأُخْرى التي استَوْطَنَها الإسْبانيونَ، فجاءتْهُ سفينتان أَقَلَّتَاهُ إلى مُستعمرةِ **(دُومينيك)** التي بَنَاها أَخَواه، وعند وُصولِه إليها لم يَجِدْ ما يُغرِيه بالبقاء، فَقَرَّرَ **العودةَ إلى إسْبانيةَ**، مع أخيهِ بارتلْميه وابنِه الأصغرِ فرديناندَ الذي اصطحبَهُ في هذه الرحلةِ الأخيرةِ، وحملتِ السَّفينتانِ المذكورتان رَكْبَ

الأَميرالِ الشيخِ العائدِ، وَبَعْدَ كثيرٍ من العَناء والمَخَاطِرِ، وصلَ كُولومبوسُ إلى اسبانيةَ في السابعِ من تشرين الثاني عامَ ١٥٠٤، وهبَطَ في الميناء دُونَ أنْ يَشْعُرَ بهِ أَحَدٌ، فقد كانتْ اسبانيةُ يومَذاك مَشْغُولَةً بِمَرَضِ الملِكةِ الذي انتهى بوَفاتِها بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من وُصُولِه، ولم يَستَطِعِ الأميرالُ العائدُ أن يُشَارِكَ في مَأتمِ حَامِيَتِهِ العظيمةِ، لِمَرضِهِ الشديدِ، وإنْ يكُنْ حُزنهُ لِوَفاتِها أدْمى قلبَهُ.

خاتمة

كولومبوسَ في نهايةِ المُطافِ الطويلِ

١٥٠٤-١٥٠٦ م

كانت وَفاةُ المَلِكةِ (ايزابلاّ) خاتمةَ الفَواجِعِ في حِكايةِ حياةِ كُولومبوسَ، ذلكَ أنّ هذه المرأةَ العظيمةَ كانتْ على الدّوامِ **حاميةَ الرّائِدِ المُكْتَشِفِ العظيمِ**، لأنّها كانت تُدْرِكُ طبيعةَ الدّسائسِ والمُؤامراتِ الحاقدةِ التي أصبحَ كُولومبوسُ يَتعرَّضُ لها من قِبَلِ حُسّادِهِ وخُصُومِهِ بعدَ نجاحِهِ الكاملِ في تحقيقِ آمالِهِ الكبيرةِ، وبُلوغِهِ المكانةَ والمَرْتَبَةَ الرفيعةَ بينَ نُبَلاء المملكةِ، وهو الرجلُ الفقيرُ الغريبُ الوافدُ

من إيطاليةَ على إسبانيةَ، وقد آمنتِ الملكةُ باستقامةِ الرَّجُلِ وشَرَفِهِ في خِدْمَةِ تاجِها، فكانتْ تَبْسُطُ عليهِ جناحَ رِعايتِها وعَطْفِها، كما كانتْ تدفعُ زوجَها الملكَ فردينانْدَ لِتيْسيرِ أعمالِ الرجُلِ وتحقيقِ مَطالِبه، فلمّا غابَتِ الملِكةُ أصبحَ كولومبوسُ **يُعاني أكبرَ المَشَقَّةِ لِلْفَوْزِ بِحُقوقِهِ** والوصولِ إليها، إذ كانَ **الملِكُ فردينانْدُ لا يَكْترِثُ كثيراً بالوفاء بِوُعودِه،** وكانَ مَرَضُ كولومبوسَ (في مفاصِله وعَيْنَيْهِ مَعَ وَطْأَةِ الملاريا التي تُعاوِدُهُ) يَقْعُدُ بِهِ عن الاتّصالِ بالملكِ الذي كان بَلاطُه كثيرَ التَنَقُّلِ من مَدينةٍ إلى أخرى!

وعندما استطاعَ الأميرالُ الشَّيْخُ أخِيراً أَنْ يَحْظى بِمُقابلةِ الملكِ، سَرَّهُ أنْ يَسْتَمعَ العاهلُ إليهِ بِعَطْفٍ ظاهِرٍ وتَقْديرٍ مَلْحُوظٍ، ولكنَّ الملكَ فردينانْدَ

ظَلَّ يُحاوِلُ إقناعَ كولومبوسَ أنْ يتنازَلَ عن حِصَّتِه من المَكاسبِ الاستعماريةِ مُقابلَ إقْطَاعِهِ أَرْضاً في إسْبانيةَ وتَمْليكِه إيّاها وإعْطائِهِ دَخْلاً ماليّاً ثابتاً ومَضْمُوناً مِنَ الدَّوْلَةِ، ولم يُخْفِ كولومبوسُ رَفْضَهُ لذلكَ، وأَصَرَّ على حُقوقِه المُتَّفَقِ عليها، **فوُعِدَ بأنْ يمنحَ الملكُ ابنَه (ديغو) لَقَبَ حاكِمٍ لِلمُستعمراتِ الجديدةِ التي اكتَشَفَها**، وكانَ ديغو قد أصبحَ واحِداً من أفرادِ الحَرَسِ الملكيِّ، وقدْ جَعَلَهُ كولومبوسُ وريثَهُ كما قَدَّمْنا، وعندما اشتدَّ المَرَضُ على الأميرالِ الشيخِ وأحسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ استدعى كاتبَ العَدْلِ وأمْلى عليهِ بحُضورِ وَلَدَيْهِ وأخيهِ بارثِلْميه **وَصِيَّتَه التي ثَبَّتَ فيها تَوْزيعَ إرْثِهِ** على النَّحْوِ التالي:

«أَطْلُبُ من وَلَدي ديغو أن يَحْصَلَ على كَامِلِ

الامتيازاتِ التي كَسَبْتُها بِسببِ اتّفاقي مع المَلِكَيْنِ فرديناندَ وايزابلاّ حَوْلَ المناطقِ التي اكتشَفْتُها بإرادةِ الله، وأطْلُبُ منهُ أن يُعْطِيَ قسماً من وارداتي إلى أقربائي الفُقراءِ، وقِسْماً آخرَ لأخِيهِ وعَمَّيْهِ. وأنْ يَدفَعَ عُشْراً منها إلى مَدينةِ جَنَوى وَطني، وأن يُقيمَ الصَّلَواتِ على رُوحي وروح أبي وأمّي وزَوْجي!».

وأضيفتْ إلى هذهِ الوصيةِ الأخيرةِ مذكّراتُ الأميرالِ التي كتبَها بِخَطِّهِ خِلالَ رِحْلاتِهِ الاكتشافيةِ.

وهكذا لَفَظَ المُكْتَشِفُ العظيمُ أنفاسَهُ الأخيرةَ في العشرينَ من أيارِ عامَ ١٥٠٦م بعد أنْ عاشَ خمسةً وخمسينَ عاماً من **حَياةٍ حافلةٍ بالآلامِ والآمالِ**، والمكائدِ والأمْجادِ، وكانَ يومَ وفاتِهِ يَرْتَدي ثَوْبَ الرُّهْبانِ، وقَدْ كانَ الراحلُ الكبيرُ

طوالَ حياتِه عميقَ الحِسِّ الدينيِّ، كثيرَ التُقى والصَّلاةِ، ودُفِنَ في اسبانيةَ، في دَيْر الفرنسيسكانِ، يومَ وَفاتِه. ثمّ نُقِلَ جُثمانُه إلى جزيرة (هَايْتي) ودُفِنَ في كنيسَتِها. وعندما انتَقَلَ حُكْمُ الجزء الاسبانيِّ من تلكَ الجزيرةِ إلى فرنْسةَ، نُقِلَتْ رُفاتُ كُولومبوس إلى هافانا في جزيرةِ (كوبا)، ويُقالُ إنّ الذي نُقِلتْ رُفاتُه إلى هافانا هو ابنُه، وأنّ رُفاتَه هو ما تزالُ في هايْتي. وقد وُجِدَ قبرٌ في كَنيسةِ هايْتي عام ١٨٧٧ م وعلى تابُوتِه حُروف ثلاثةٌ (ك. ك. أ = C.C.A) وهي الحروفُ الأولى من اسم كريستوف كُولومبوس الأميرالِ. فاستدلّوا من ذلِك على أنّهُ قبرُ مُكتشِفِ أمريكَة الأميرالِ الأوّلِ!

* * *

ويُلاحِظُ الباحِثون في سيرة الرجلِ العظيم عظَم

النُّكْرانِ الذي لَقِيَهُ في فَتَراتٍ كثيرةٍ من حياتِه، فقد **كانَ حُلمُه الكبيرُ يُقابَلُ بالسُّخْريةِ والهُزْء** عندما كان يُحاوِلُ إقْناعَ الآخرينَ بِمَشْرُوعِهِ العظيمِ، واتُّهِمَ بأنه مغامرٌ مَجنون، وحاولَ بحّارتُه أنْ يَتَخلَّصُوا منه بالقَتْلِ عندما نَفِدَ صبرُهُم قَبْلَ أَنْ تَلُوحَ اليابسةُ في العالَمِ الجديدِ لأَعينِهم، **وبعدَ نجاحِه أصبحَ الرجلُ هَدَفاً للدسائسِ الحاقدةِ والمُؤامراتِ والاتّهاماتِ**، فأهينَ مَرّاتٍ بالشَكِّ في أَمانتِه واستقامتِه، وكُبِّلَ بالقُيودِ وأُلْقِيَ به في السجْنِ مَعَ أَخَوَيْهِ، وأعيدَ كالمُجرمينَ على هذه الحالِ إلى اسبانيةَ، وهذه الخطوطُ الحزينةُ في حَياتِهِ جَعَلَتْ منها مأساة بالغةَ المَرارةِ، وهذه المَرارةُ هي التي جَعَلَتْه يرتدي ثَوْبَ الرُّهْبَانِ إلى وَفاتِه، وهي التي جَعَلَتْه يذكرُ دائماً أنّه ابنُ جَنَوَى ويُوصي بِجُزْءٍ من وارِداتِه

لِتلكَ المَدينةِ التي أنْجَبَتْهُ، فقد كانَ النُّكْرانُ الذي ذاقَ مَرارتَه من المُهاجرينَ الإسبانِ، وهو الذي شقَّ لهم الطريقَ نحوَ مُستقبلٍ أغْنى وأرْغَدَ وأمْجَدَ، جُرْحاً لا يَنْدَمِلُ في أعماقِ نفسِه، وقد حَمَلَه معه آخرَ الأمْرِ إلى قَبْرِهِ!

سببُ مأساةِ كُولومبوس أنّه رَجُلٌ عظيمٌ سَبَقَ عَصْرَهُ، ولكنَّه على الرَّغمِ من جميعِ الأهوالِ التي اعْترضَتْ طريقَه لم يُدْرِكْهُ اليأسُ من قُدرتِهِ على تَحقيقِ أحْلامِهِ، ولم يَفْقِدْ لحظةً ثقتَه الكبيرةَ بِنفسِه، حتى بلغَ ما أرادَ، وغَدا اسمُه واحداً من المُبَرِّزينَ الخَالدينَ بينَ رجالِ التّاريخِ الأعلامِ.

المحتوى

سلسلة في عشرة كتيبات تعرفك بصورة موجزة
بأعلام مشهورين من الشرق والغرب

١ـ الاسكندر الأكبر
٢ـ هنيبعل
٣ـ أبو العلاء المعرّي
٤ـ ابن بطوطة
٥ـ ابن خلدون
٦ـ كريستوف كولومبوس
٧ـ وليم شكسبير
٨ـ نابليون بونابرت
٩ـ ليون تولستوي
١٠ـ المهاتما غاندي

سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بيروت ـ شارع سورية ـ بناية درويش
ص.ب: (٦٩١٨ ـ ١١)